نانسي هيوستن

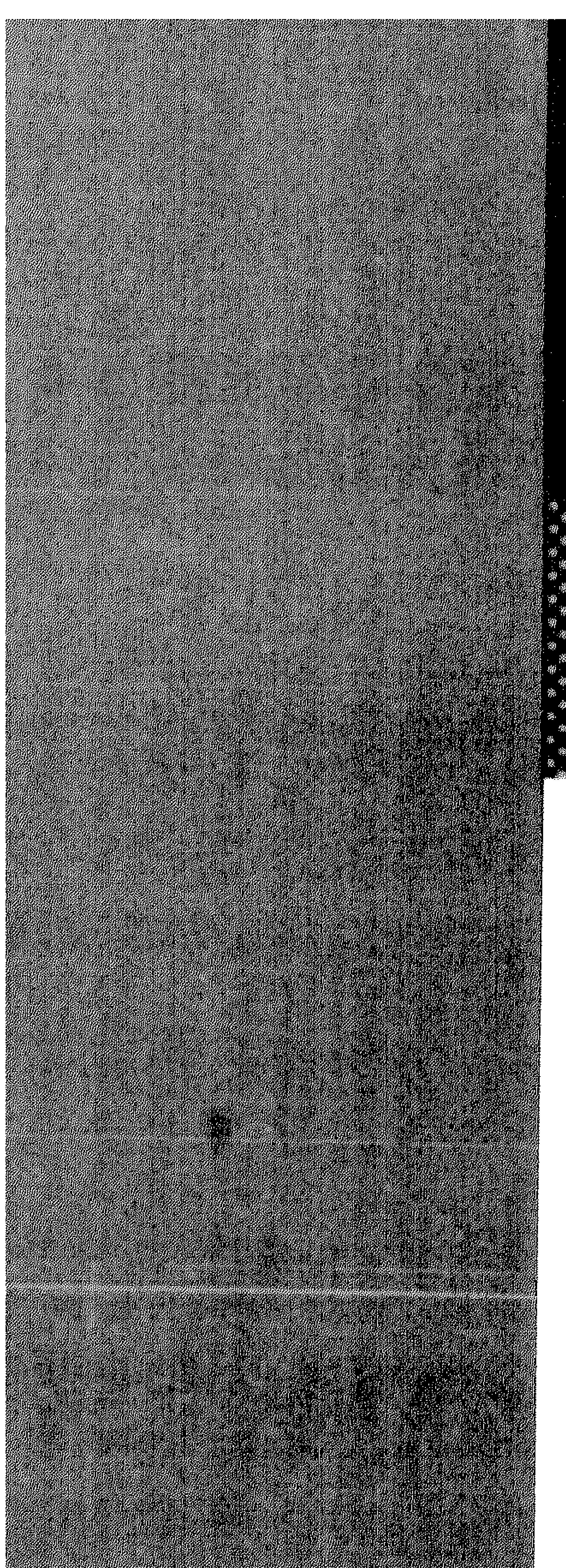
Perdu (suivi de)

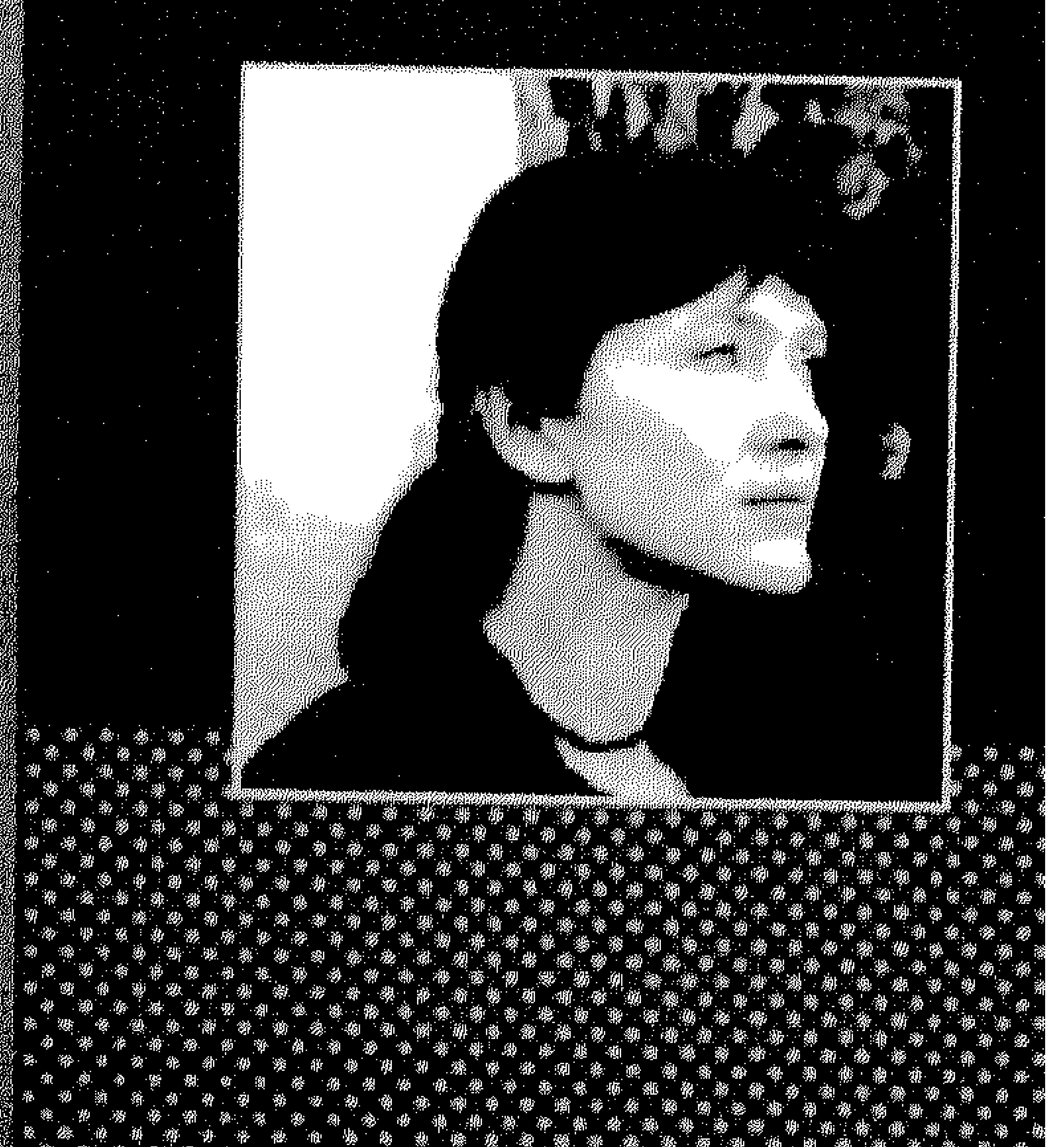
الشمال المفقود (يليه)

وجوه فرنسا الـ12

ترجمة: د. نيفين النصيري

دار الشرقيات





Nord

ولدت نانسي هيوستون في كالجاري (كندا)، ونشرت العديد من الروايات والنصوص والمقالات الأدبية، وآخر أعمالها "العذاب الحلو" 2001، و"عشق" 2003

إهـــــــداء 2005

السفارة الفرنسية

مـــصـــر

الشمال المفقود

ويليه

وجوه فرنسا الاثنا عشر



دار شرقيات للنشر والتوزيع

العنوان الأصلي للكتاب:
Nord Perdu suivi de *Douze France*
Nancy Huston

الشمال المفقود ويليه وجوه فرنسا الاثنا عشر

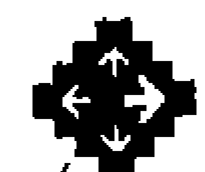
ذكريات وتأملات

نانسي هيوستون

ترجمة: نيفين النصيري

مراجعة: بشير السباعي

الطبعة الأولى **2005**



دار شرقيات للنشر والتوزيع
5 ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي 11111
باب اللوق، القاهرة
ت 3902913 فاكس: 3931548
sharq_ca@yahoo.com
تصميم الغلاف: هبة حلمي

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع



المركز الفرنسي
للثقافة والتعاون العلمي
قسم الترجمة والنشر

رقم الإيداع 2120/ 2005
الترقيم الدولي:-6 ISBN 977-283- 185

نانسي هيوستون

الشمال المفقود

ويليه

وجوه فرنسا الاثنا عشر

ذكريات وتأملات

ترجمة: د. نيفين النصيري

مراجعة: بشير السباعي



دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى لولن،

أخي في الدم والروح واللغات

❖

الوطن هو حيث تكون بدايتك.

ت.س. إليوت، *East Coker*

الشمال المفقود

"من الآن فصاعدا سأشفق أكثر على قلبي بطيبة،
سأتأمل ذاتي الحزينة بإحسان،
لكي لا تظل هذه النفس المعذبة تحيا بروحها المعذبة
هذا العذاب أبدا."

جيرار مانلي هوبكيتز[١]

❖

هذه الكلمات
لا يلفها، من ثم،
لغز ما.

ماريكا بودروتشيتش[٢].

---

[١]- شاعر أنجليزي (١٨٤٤-١٨٩٩). مر.
[٢]- كاتبة ألمانية معاصرة من أصل يوغوسلافي. مر.

إهداء

يقول سفياتوسلاف ريختر[٣]:
"نعم. أنا غير معجب بنفسي".
في البدء، كره النفس. أيا كان السبب.
كثير من التصرفات يمكن أن يكون مصدرها كراهية النفس.
يمكن أن نصبح فنانين. ننتحر. نبدل أسماءنا،
وطننا. لغتنا.
كل هذه الأشياء معاً
(رومان جاري[٤]).

---

[٣]- عازف بيانو أوكراني (١٩١٥-١٩٩٧). مر.
[٤]- روائي فرنسي من أصل روسي (١٩١٤-١٩٨٠). الحاصل الوحيد على جائزة جونكور مرتين.مر.

الاتجاه

أن نضل الاتجاه [désorienter] يعني أن نفقد الشرق.

فقد الشمال يعني نسيان ما كنا ننوي قولـــه. ألا نعود نعلم أين توقفنا. نفقد عقلنا. تصرف لا يليق. شيء لا ُيستدعى إلا بشكل سلبي، لكي ُينْكَرَ، لكي نقول أننا لم نقم به. نقول: "هذا الشخص لا يفقد الشمال ".

لا نقول أبدا: " ها هو. فَقَدَهُ، الشمال."

يقترح قاموسي الفرنسي-إنجليزي الممتاز ترجمـــة فقد الشمال أو الوجهة بـــتعبير: "To be all abroad" وهو تعبير يعني حرفياً: أن يكون المرء في الخارج تماماً. ولكن إذا بحثنا عن هذا التعبير في القاموس الإنجليزي-فرنسي، ســـنجد: مبعثر في كل ركن أو في الجهات الأربع، وأيضا: أخطـــأ تماماً، فقد رشده كاملا، شرد تماما.

هذا لا يعني الشيء نفسه! والقواميس كثيرا ما تربكنا، تلقي بنا في السديم المفزع للمابين لغتين، حيث لا "تريد" الكلمات قول ما تعنيه، حيث ترفض أن تقوله؛ حيث تشرع في قول شيء فإذا بها تنتهي إلى قول شيء آخر تماما.

كنت أنوي الحديث عن الشمال.

هذا هو ما كان يجب عليّ أن أقوله في الأصل. ما كان من المفترض أن أقوله إذا كان لدي ما أقوله.

أعود إلى الحديث عن الشمال. ففي كل مرة نشير إليه في اللغة الفرنسية نؤكد على أنه كبير. بل إننا نزين الكلمة غالباً بحرف كبير في بدايتها. لا يقول أحد – متحدثا عني– : جاءت من الشمال الصغير. دائما من الشمال الكبير. في المخيلة الفرنسية، كِبَره هذا تعويض عن خوائه؛ فعلى الرغم من ضخامته إلا أنهَ لا يحتوي على شيء. مساحات شاسعة من الثلوج. ملايين الهكتارات من الجليد. نبدي إعجابنا به دون أن نعرف ماذا نقول، أو كيف نتحرّى فكرتك عنه. نعرف أن الجو بارد هناك. ("يا إلهي ما هذا البرد!". وبعد ثلاثين عاما من مغادرتي

لكندا، أطالب بحقي في أن أتفوه بمثل هـــذه الجملـــة في باريس، وأن أشعر بالبرد في باريس، تبـــاً، دون أن يـــرد عليّ أحد في كل مرة: " ألا يجب أن تكوني معتادة على مثل هذا البرد لكونك كندية ؟" ... وهكذا يتم ترحيلي- إن لم يكن إلى مسقط رأسي كالمساكين الذين لا يحملون وثائق إقامة فحسب- فعلي الأقل إلى أصولي...).

"الشمال"، هو أيضا طريقة للتحدث. والواقع أن مدينة كالجاري، مسقط رأسي، تقع، تقريبا، على خـــط العرض نفسه الذي تقع عليه باريس، مـــدينتي بـــالتبني. الشمال صورة متخيلة. صورة لكي نقول إن الجو هنـــاك بارد وإنه لا يوجد هناك أحد.

"The true North strong and free" [٥] ذلكم إذن هو نشيدي الوطني، في بلادي. الشمال الحقيقي هو الشمال الحـــق أو الجغرافي، الذي تشير إليه البوصلة: أي القطب الـــشمالي. وأن نفقد البوصلة هو أن نفقد عقلنا، أي نحن.

بمعنى آخر فإن العقل هو الذي يشير إلى الشمال.

يجب ألا نفقدهما: العقل، والشمال،أتفهمون.

يجب ألا نحن. ألا نفقد عقولنا.

أعتذر.

---

[٥]- "الشمال الحقيقي، قوي وحر" - بالانجلزية في الأصل .م.

"strong and free"[٦]، أي قوي وحر. قوي وحر يعني الشيء نفسه. لا توجد أية مشكلة ترجمة هذه المرة، أو أي التباس محتمل. نكون أقوياء وأحرارا أو لا نكون، أليس كذلك؟ من المحتمل أن يكون وطنك قويا وحرا أيضا، من كثرة ارتواء أرضه بالدماء. ما اسمه؟ أهكذا؟ ومنذ متى؟ وطني يدعى كندا منذ قرنين صغيرين فقط. قبل ذلك لم يكن لديه اسم، لم يكن له وجود. ووطنك؟ وأجدادك؟ هل أنت وطني؟ لا، هذا ليس استفتاء، محاولة للاستدلال فقط. هل أنت فخور بقدومك من بلدك؟ لماذا؟ ماذا فعلت لكي تستحقه؟ وماذا تعني خيانة الوطن بالنسبة لك؟ أن تتركه وتهجره إلى الأبد؟ أن تمارس الحب مع وطن آخر؟

وطني كان الشمال، الشمال الكبير، الشمال الحقيقي، القوي والحر.

لقد خنته وفقدته.

هذا الخريف أكون قد أمضيت خمسة وعشرين عاما في فرنسا. جئت في سنة ١٩٧٣، والآن وأنا أكتب

---

[٦] بالانجليزية في الأصل. م.

نحن في سنة ١٩٩٨. ربع قرن: أكثر من نصف حياتي (يمر الزمن، هذا ما كنت أحاول أن أقوله لكم توًا، وهـو أن كل شيء نسبي. بلد شاب أو هرم، طفل صغير أو شخص عجوز. هذه أشياء ليس لها وجود في المطلق، وذلـك لأن الزمن يمر حتى بالنسبة للبلهاء. يكفي أن ننتظر، ليحـول الزمن الشباب شيوخا، بلادا كانوا أم أشخاصا، شـئنا أم أبينا). لو أنني ولدت سنة ١٩٧٣ لأصبحت بالغة، شـابة في الخامسة والعشرين. ولكن ها هي نقطة الـضعف: لم أولد سنة ١٩٧٣، وهناك فرق كـبير بـين أن نمـضي السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياتنا في بلد ما أو السنوات الخمس والعشرين التالية.

لقد ترك الشمال الكبير فيّ آثاره التي يستعـصي محوها.

ما شكل هذه الآثار، وما طبيعتها؟ فيمَ ما زلـت ابنة بلدي؟ في كل شيء: وذلك لمجرد أنني أمضيت طفولتي هناك. فلا شيء يشبه الطفولة، حيث لا نملـك اثنـتين، ومهما قلنا، لا نرجع إليها حتى مع مرض الزهايمر وفقداننا للذاكرة.

حتى لو كنت أعيش في فرنسا منذ زمن أطول مما عاشه أولادي فيها على سبيل المثال (هذا بديهي!)، لن أكون فرنسية مثلهم. في العائلة، الكل فرنسيون، إلا أنه – شأن المساواة– هناك من هم أكثر فرنسية من غيرهم[٧]. (فأبناء أم كندية وأب بلغاري –ولدوا في فرنسا– هم فرنسيون دون أية مشكلة أو تعقيد، وهذا بفضل نسبة القتامين المنخفضة نسبيا في أنسجتهم. ومن المؤكد أن الذرية الفرنسية لامرأة من توجو ورجل كمبودي ستجد صعوبة أكثر في الإحساس بأنها في بيتها، في فرنسا).

يسألونني مرارا: "هل تشعرين بأنك فرنسية الآن؟ (فدائما ما يكون المغتربون معرضين لأسئلة بلهاء).

ماذا يعني أن أشعر بأنني فرنسية؟ كيف سأتعرف على ذلك إذا كان يجب أن يحدث لي يوما ما؟

ويمكن أن نمنح الأشخاص ذوي الأصول الأجنبية الجنسية الفرنسية، أن "نُطَبّعَهم" كما نقول بالنسبة للحيوانات التي نحشوها بالقش. ويمكننا أن نمنحهم

---

[٧] – لعب على سخرية چورچ أورويل في مزرعة الحيوانات من "من هم أكثر مساواة من غيرهم..!".مر.

شهادات فرنسية، جوائز تكريمية فرنسية، بل الخلود الفرنسي... إلا أنهم لن يكونوا فرنسيين أبدا وذلك لعدم قدرة أحد على إعطائهم طفولة فرنسية.

إذن، لا أشعر الآن بأنني فرنسية.

(هناك عدد ليس بالقليل يجد صعوبة في الشعور بأنه فرنسي حتى مع طفولة فرنسية!)

فالطفولة – قريبة كانت أو بعيدة– قابعة فينا أبدا. منذ عدة أسابيع، ساقتني زوجة رجل كان قد دعاني إلى مكتبة بالضواحي. أحس هذا الرجل، الذي من المحتمل أنه أتخم من كثرة كتبي في المكتبة، بضرورة الاعتراف – بين مكالمتين على محموله– بأنه ليس معنياً بما كنت أكتب.

قال لي: "الإجهاض وقتل الأطفال موضوعات نسائية بحتة"

سلمتُ: أنا أتفهم أن تكون غير معني بهذه الموضوعات لكونك رجلا... أما لكونك طفلا، فهذا يعني الجميع، أليس كذلك؟

رد عليَّ السيد بنبرة خبيثة: آه!. أشك في أن يكون هناك أطفال كثيرون يقرأ ون كتبك؟

-لا ، لا، قلت له مصححة، كنت أعنيك أنـــت بالطفل.

قال محتجا: أنا لست طفلا!

- بلى، إنك لطفل، فنحن جماع كـــل مراحـــل عمرنا في الوقت الواحد، ألا تعتقد ذلك؟ فالطفولة كنواة الثمرة: والثمرة لا تصير فارغة عندما تنــضج! ولا يعـــني تضخم جسم الثمرة حول النواة اختفاء الأخيرة...

قال محاوري منهكا: أعتقد أنه محظور علـــيَّ أن أختلف معكِ في الرأي...".

يا للمسكين الذي لم يكن سوى بالغ. (مسكين، أي يختار الفقر) فهو لا يعيش في المنفي.

أما المنفيون، فهم أغنياء. أغنياء بهوياتهم المتراكمة والمتناقضة.

وفي الواقع، نحن جميعا متعددون، ولو لمجرد هـــذا السبب: لأننا كنا أطفالا، ثم صـــرنا مـــراهقين، لم نعـــد كذلك؛ أو ما نزاله.

هنا سأعرض شيئا أقوله لأول مرة وسأجد الفرصة لأن أكرره مرارا بعد ذلك، لدرجة أنـــه يمكـــن وصـــفه

باللازمة، أو الفكرة الرئيسية، بل رسالة هـذا الكتاب الصغير(حاشا لله). فلنضف إذن حروفا مطبوعة بميل: *يكتشف المغترب بشكل واع (ومؤلم أحيانا) عدداً من الحقائق الواقعية التي تصوغ، غالبا رغما عنا، الوضع الإنساني*. فمن الصعب على المغترب ألا يكون واعيا، على سبيل المثال، بالطابع الفريد كلية للطفولة، بحقيقة أنها لا تتركنا أبدا، أما السكان الأصليون فيمكنهم أن يهدهدوا أنفسهم بوهم الاستمرارية والبداهة العذب طيلة حياتهم.

فقد الاتجاه

يعني المنفى الجغرافي أن الطفولة بعيدة: أن هناك قطيعة بين الماقبل والمابعد.

وجود هنا وآخر هناك. وجود: بكل ما تعنيه الكلمة من تعقيدات يومية، ومن رموز مكتسبة ومستوعَبَة، ونظم مرجعية، كاللغة (هذا موضوع واسع، سنعود إليه لاحقا...) ولكن في كل الأحوال: نظام سياسي، مطبخ، موسيقى، أنماط سلوك، عادات، لغة عامية، تاريخ، ألف حكاية، أدب، وهلم جرًّا .

هنا، تكتم ما كنته من قبل. الطفولة، حادي بادي، الطعام، المدارس، أصدقاء الطفولة، لا أحد يعرفهم، لا تهتم بذلك، فلن ترهقهم بإعطائهم درسا عن غربي كندا، البروتستانتية، حقول القمح، المطربين الشعبيين، آبار البترول، قطارات البضائع، دروس البيانو، أولاد العم،

نزهات نهاية الأسبوع، البحيرات وسط الجبال، والـــدك، أمك. . تقول في داخلك: إنهم يجهلون كل ما صاغك أو جعلك هكذا، وهذا ليس بالأمر الخطـــير. وحـــتى إذا لم أتحدث عن ذلك أبداً، فإنني سأتركه مدفونا في مكان مـــا في قلبي، في ذاكرتي، ولن أفقده أبدا.

هناك، لا تصرح بما تفعله.

أي نعم! فما تفكر فيه، تقوله، تقرأه، تشاهده في حياتك اليومية منذ عشرات السنين، ليست له أية أهميـــة بالنسبة لمن هم من بلدك. ولأنهم لا يعلمون شيئا فلـــيس لديك الرغبة في أن تحدثهم بشكل عام عـــن شـــيراك، أو ميتران، أو دوراس، أو ميدان دي فوج في الصباح الباكر، أو مخبزك المفضل، أو ناشرك، أو محطة فـــرانس كلتـــور الإذاعية، أو جيرانك في الـــبيري، أو أصـــدقائك، كـــم سيكون ذلك مرهقا، ومن أين ســـتبدأ. فتـــصمت إذن، تبتسم، تتحدث معهم عن بيل كلينتون، وفيليـــب روث، ومتحف الفن الجميل، وعن البوسطن هاربور، وعن موجة الحر في فلوريدا، وعن المبشرين البروتستانت في التليفزيون، وهكذا. ولم لا، فأنت تعرف بشكل عام كل هذا أيضا. وعندما تجهل عم يتحدثون فمن الجائز دائما أن تنـــصت، فهذا غير مؤذ.

هذا هو المنفى. تمزق، رقابة، إحساس بالذنب.

فأنت تتواصل مع الآخرين إما مستدعيا الجزء الطفولي فيك أو البالغ، وليس الاثنين معا أبدا.

إلا أن ما كنت قد كررته مسبقا لا يصلح هنا. بل العكس. وذلك لأن المغترب هنا هو ضحية الخديعة، آخر من يفهم. وما هو جلي بالنسبة للجميع يكتشفه المغترب في ذهول مؤلم.

فأنتم أيها السكان الأصليون (في وقتنا الحالي وتحت سمائنا على الأقل) تجدون أنه من الطبيعي التحرر تدريجيا من أصولكم، ومن القيم التي رسخت فيكم منذ شبابكم. فلا تذهلون وأنتم في الأربعينيات من عمركم عندما تلاحظون الهوة التي تفصلكم عن ذويكم.

أما نحن، بلى، يصدمنا ذلك. لأن الفروق بينهم وبيننا، بين البارحة واليوم، كنا دائما ما نربطها بالمنفى، وبتغيير البلد. لم تكن الهوة في أذهاننا سوى محيط تبلغ مساحته ١٠٦ مليون كيلومتراً مربعاً.

إلا أنكم على حق هذه المرة.

أفكر في آني أرنو وفي الكتب الجميلة التي كتبتها (وخاصة "المكان") عن ابتعادها عن الوسط الاجتماعي

لأبويها. أتذكر جملا كـ: "الآن كل ما يخصني من قريب غريب عني"، "تبدل الكون بالنسبة لي"، "كنت أشعر بأني منفصلة عن ذاتي"....

ذات يوم، بينما كنت أتصفح مخطوطاً لرواية كندية، توقفت عند فقرة تصف هذا الشعور القاسي نفسه بالتمزق:

"لم يكن (ديلاني) يشعر بالارتياح في المكان الذي شَبَّ فيه. لم يكن يعرف كيف يزور ما كان من قبل منزله. فمن المستحيل أن يزور بيته، حيث ترك فيه أجزاء من ذاته. ليس لأنه كان يرغب في التخلص منها، ولكن لأنه لم يكن يعرف كيف يحضرها معه. وعندما عاد إلى منزله، وعندما وجد المستنقع، كان لديه الإحساس بأنه يرى طفلا صغيرا بائسا يمد يده إليه، موجها راحته إلى أعلى. لم يكن يعرف كيف يجيب. لم يكن يعرف ماذا يريد هذا الطفل (...).

"ثم ما لبث أن تكرر الأمر ثانية كما لو كان تحدياً، حيث عاد إلى الجامعة لكي يستعيد أشلاءه التي لم يستطع حملها معه إلى المستنقع.." (ماتيو مانيرا، *تبدل أوراق الشجر*).

يعني المنفى الاجتماعي أنه بين حقبة ما من حياتنا وأخرى هناك انحلال للاستمرارية. فهما يشكلان عالمين، ليسا فقط متباينين، وإنما متضاربين و متراتبين أيضاً. هناك تقاطعات ضئيلة بينهما، وأنت أحدها. تروح إيابا وذهابا بينهما، كديلاني، وآني إرنو، وهذا يجعلك تعيسا.

إلا أن المنفى قد يخفي منفى آخر. فانعدام الاستمرارية الجغرافية يمكن أن يخبئ ولسنوات طويلة انعداماً للاستمرارية الاجتماعية. وحتى ترتاح ولا تثير الأمواج، تبرر أي سوء فهم بينك وبين عائلتك بـ"صدام الحضارات"، صعوبة شرح حضارة بلغة الحضارة الأخرى. إلا أن روحك، أيضا -وليس فقط جسدك- تباعدت، ودون أن تشعر، عن نقطة الانطلاق. ويوما ما يجب أن تعترف بأنك لم تعد تشارك قيم من وهبوك الحياة، من تحدثوا معك، غنوا لك، دللوك، أطعموك في دفء وتواطؤ بيت العائلة. وحتى لو لم تكن تعلمت أية لغة أجنبية، فأنت لم تعد تتحدث لغتهم.

وحتى شهر يوليو الماضي، لم أكن منتبهة إلى أن منفاي كان اجتماعيا أيضا، وأن الأمر لم يكن يتعلق بقطيعة بين أوروبا وأمريكا فحسب، وإنما بين بيئتين، ونسقين للقيم...

إلا أنني كنت سعيدة للغاية ذلك الصيف الــذي قضيته مع أسرتي ونسلهم الغزير في نيو هامبشاير . قضيت عشرة أيام في أكذوبة ضخمة ومبهجة، وكأنني في الخامسة عشرة وليس الخامسة والأربعين. تــضافرت الأســباب لتشجعني على تقبل نفسي في هذه الأكذوبة. عندما تركنا ألبرتا للاستقرار هناك في سنة ١٩٦٨، كــان ذلــك في الصيف،كما هو الآن. الشمس الحامية نفسها، نقاء الجــو والماء نفسه،الجمال الفياض للغابة نفسه: مزيج فاخر مــن أشجار القيقب، والصنوبر، والسندر... مــرت ثلاثــون عاما، إلا أن مدرستي الريفية ما زالت هناك، وسط الغابة، والتلاميذ المشعثون الذين كانوا يتسكعون فيها قد يكونون الصعاليك الذين تخرجوا معي سنة ١٩٧٠... العلامــات نفسها تهدي طرقنا بالسيارة: "ذرة للبيع"، "متنــزه عام"، "تفاح، سدر، قطر القيقب"، "احموا أولادنــا".... قــام والداي بتعديلات في البيت الذي سكنا فيه مــن ١٩٧٤ إلى ١٩٨٨، و أدور في مطبخهما فينتابني شعور مــسكر بالألفة، وأفتح الأدراج لكي أجد الملاعــق والمناشــف، وورق اللعب والكبريت في أماكنها الخالدة... من الصباح وحتى المساء، أثناء قيامنا بالتجديدات معا، تذاع بــرامج: الجولدن أولديز- مستر بوستمان - هــاي - جــود - تنــزَّه على الجانب الفسيح- أغاني الستينيات والسبعينيات

والتي أستعيد كلماتها على شفتي بشكل طبيعي. بـــالطبع زوجي وابني وابنتي هنا لكي يذكروني بأنني لم أعد حورية صغيرة. ولكن، بفضل الجو الصيفي والإجازة، نتحــرك جميعنا في جو غير واقعي: خفيفـــي الأرواح، مبتـــسمين، محايدين، مرتدين الشورتات وملابس البحر، متخففين من أدوارنا المعتادة.

محاطةً إذن بأسرتي الكبيرة، سأسبح في البحيرات نفسها التي سبحت فيها منذ ثلاثين عاما. أبي بجـــانبي في السيارة، أقود في شبكة الطرق الصغيرة المرصوفة نفـــسها والتي علمني فيها القيادة وهو جـــالس بجـــانبي وأنـــا في السابعة عشرة من عمري. في متنزه الستيت بارك نشوي النقانق، والهامبورجر وأسياخ الخضراوات على نار المخيم الذي يشبه مخيمات شبابي حتى ليلتبس الأمر عليَّ. كمـــا أنني لا أشعر بأي ضيق عندما أجـــد نفـــسي في قلـــب المحادثات الأسرية ، فكل شيء قريب مني، يسير، أستطيع التعرف عليه بسهولة.

إلا أنه يسيرٌ بشرط واحد: أن أكتم حقيقة أنـــني لديَّ ومنذ ربع قرن حياة أخرى على الجانب الآخر مـــن

المحيط، حياة أتكلم فيها لغة أخرى وأكتب فيها كتبا بتلك اللغة.

هذا سهل، نعم...
ومؤلم.

وذلك لأنه في العمق. فإذا كانت أسرتك تجهل كل شيء عن حياتك - شكلها، سياقاتها، انشغالاتها، عواطفها، طموحاتها وآمالها... فقد لا تكون ذات أهمية في النهاية.

هيا حاولي أن تصفي لنا حياتك. ننصت إليك. ماذا يبدو لك نابضا لهذه الدرجة، فاتنا بشكل هائل، في هذا المكان؟ آه...؟ لا أعرفه... لا أعرفه... لم أسمع عنه من قبل....

ما المهم؟
ها أنت ذا تبدأ في فقد الاتجاه.

فحتى لو أن الاتصالات قد تباعدت، مع مرور السنوات، فإن أصدقاءك وأهلك هناك كانوا دائما حاضرين في ذهنك كالشهود الخياليين لحياتك هنا. كنت

تحكي وتشرح لهم، سنة تلو الأخرى، كل ما كنت تقوم به. في ذهنك، كانوا يذهلون، يعلقون، يطرحون أسئلة ويعجبون من إجاباتك... كانوا يتفقون مع نظرتك ورأيك، ينبهرون باستمرار من سهولة ويسر تطورك في هذا العالم الغريب. (نعم: بشكل مُفارق، فإن المغترب يظل عادة غير مستأنس على المستوى الخيالي بالنسبة لعائلته، حتى مع تحرره بشكل جذري منها أكثر ممن مكثوا في بلادهم. يعرض عليهم اختياراته، يلتمس موافقتهم، يتكل على مساندتهم.)

أما في الواقع – المرير، كما هي كل الحقائق- أنت غائب عن هناك. أقاربك السابقون لا يضيعون أوقاتهم لتخيلك في حياتك الجديدة، يا لها من فكرة! لا يتخيلون أي شيء. لا يعرفون، إذن لا يبالون. لديهم أشغالهم. وإذا كنت ما تزال حاضرا في أفقهم الذهني، فإن ذلك إنما يحدث -باستثناء بعض الحالات- بشكل مؤقت، زائل، ومتقطع. الاستثناء الوحيد هو أبواك إذا كان لديك بعض الحظ: فنادرا ما ينسيانك بالكامل، أو لا يباليان بك مئة بالمئة. مكانتك في قلبيهما مضمونة وكبيرة، حتى ولو بشكل هلامي، لا يمكن أن تغتصب أو تمحى. إلا أن

القاعدة تظل هي هذا التروع المفزع والطبيعي إلى ملء الفراغ. لم تترك برحيلك ثقبا فاغرا . فوجود الآخرين هناك ممتلئ كالبيضة.

أي نعم، هذه هي الحقيقة. لا ينبهر أحد بما تفعل. فمنذ كل هذه السنوات وأنت تظن أنك تدهش جمهورا بعيدا بينما أنت تستسلم لألعابك البهلوانية أمام قاعة خالية.

وهكذا يتلاشى شاهدك الداخلي بشكل مفاجئ وبلا رجعة.

إنك وحدك.

القناع...

أن نختار ونحن بالغين ترك أوطاننا، بمحض إرادتنا وبشكل شخصي- لكي لا نقول بشكل نزوي- وأن نعيش بقية حياتنا داخل ثقافة ولغة كانتا مجهولتين بالنسبة لنا إلى تلك اللحظة، فذلك يعني تقبل العيش في التقليد، والتظاهر، والمسرح، إلى الأبد.

ومن المؤكد أننا قد نرغب في التخلص من السمات التي قد "تفضح" أصولنا (هنا لا أتحدث، كما فهمنا، عن مشاكل اندماج القادمين من البلاد الفقيرة في البلاد الغنية). أعرف بعض الأمريكيين الذين يحتفظون بلكنتهم دون حرج، وسراويلهم الجينز والهامبورجر، على الرغم من إقامتهم في فرنسا منذ سنوات طويلة مثلي، وهم مقبولون ومحبوبون من معارفهم بكل "غرائبهم" كيانكيين.

ففي الواقع، لا نتعرف على سماتنا الثقافية إلا عندما تتنافر مع سمات الثقافة المحيطة. لم أكن أشعر بأنني

طهرانية جداً في ألبرتا أو نيو إنجلاند. إلا أن إيقاع الحياة في منطقة البحر المتوسط بدا لي شبه صادم، وذلك خلال زياراتي الأولى لإيطاليا أو منطقة البروڤانس في فرنسا. فقد أمضيت وقتا طويلا قبل أن أتذوق الجمال الخاص للكسل العذب: المشروبات الفاتحة للشهية التي لا تنتهي، القطارات المتأخرة، عدم فاعلية مكاتب البريد كانت تخرجني عن طوري... كنت أتصور أن هناك في الهواء نفسه الذي أتنفسه، الشمس، التوت، السمك، الحسية، الرمال، الموسيقى، البحر، نعومة وجمالا أكثر من اللازم، دون عراك، دون تضحية، دون "استحقاق" ... نعم: لقد سمح لي ذلك بأن أعرف مدى طهرانيتي.

ففي مسرح المنفى، يمكن أن "نفضح" كغرباء بمظهرنا الخارجي، بطريقة حركتنا، أكلنا، ملبسنا، تفكيرنا، وضحكنا. وشيئا فشيئا ُنراقبُ، نتأقلم، نبدأ في وضع رقابة على الحركات والتصرفاتَ غير الملائمة، سواء كان ذلك بشكل واع أم لا... وإذا كنا ننشد الانصهار في الجموع الجديدة، تظل اللغة بالطبع الركن الأهم.

ومن المؤكد أن تعلم اللغة الأم يتم بالتقليد أيضا، إلا إننا نجهل ذلك. ليس لدينا سوى ذلك لفعله! لا يوجد

رضيع واحد يبدأ بتعتعة "بابا" أو "ماما" أو "هـــو هـــو " بلهجة ما. فنكتسب القواعد والتراكيب ببطء، ولكـــن، بمجرد اكتسابنا إياها، فإنها تبقى ثابتة، مصبوبة في قوالب "المرات الأولى" البرونزية.

الأمر مختلف تماما بالنسبة للغريب الذي يأتي وهو محمل بأمتعته الثقيلة والمتراكمة خلال عشرين أو ثلاثـــين عاما من الحياة العصبية. بكل أحاديده المحفورة، عاداتـــه المتصلبة، مفاصل أعصابه المنسابة، ذكرياته الجامدة، لغتـــه التي أصبحت غير قادرة على الارتجال، فيصير محكوما عليه بالتقليد الواعي.

وأحيانا ما يحصل المغترب على نتائج عظيمة: فعلى الرغم من عدم امتلاكه موهبة التمثيل، إلا أن التقليد يمكن أن يكون مقنعا جدا. فهذا يحـــدث: الأجانـــب الـــذين يفلحون في أن يظهروا كالسود الأمريكيين أو الرباعيين[8]، أوما لا أدري أي اسم بشع، والذين كانوا يتفاخرون من قبل بأنهم "يبدون" كما لو كانوا بيضا. وكما هي الحـــال دائما، فإن النساء ينجحن في ذلك أكثـــر مـــن الرجـــال

---

[8]- أبناء رجل خلاسي وامرأة بيضاء أو امرأة خلاسية ورجل أبيض . مر.

(عندما تجتهدن في ذلك، باستثناء تلك التركيات اللاتي يتركهن أزواجهن الأتراك أيضا محبوسات في منازلهن في المهجر الألماني). فالنساء ممثلات بطبعهن. لديهن عادة التأقلم؛ حيث أنه جزء من هويتهن كنساء.

يقوم المغترب إذن بالتقليد. يجتهد، يتحسن، يتعلم إجادة اللغة المتبناة من الحسن للأحسن... ويبقى مع ذلك، غالبا وعلى الرغم من جهوده المضنية، شيء ما. أثر صغير للكنة. اشتباه ما، يجب أن يقال ذلك. أو ... نغمة ما، جملة ما غير مألوفة... خطأ في الجنس، خرق ضئيل في تصريف الأفعال... وهذا يكفي. والفرنسيون يتربصون، دقيقون سريعو الانفعال، حساسون بشدة فيما يخص لغتهم.. فيبدو الأمر كما لو أن القناع يسقط.. وهكذا تصير مكشوفا! نلمح هويتك الحقيقية التي كانت مغطاة بالقناع فنقفز عليها: ولكن... هل قلت "هذه قميص حمام"؟ أو "هذه مغطس"، أو "هذه معيار النغم"؟ أو "هذه شفاء"؟ لقد أنصت جيدا، أخطأت؟ آه، وذلك لأنك غريب! جئت من بلد آخر وتحاول أن تخفي عنا ذلك، وأن تتنكر في زى فرنسي، فرانكفوني... إلا أننا نبهاء، لقد حزرنا هويتك، أنت لست من هنا... "هل أنت من

أصل ألماني؟ إنجليزي؟ سويدي؟ أعترف أنني أقوم بذلك أنا أيضا بمجرد أن أتعرف على لكنة ما في حديث شـــخص. أقوم بذلك وأنا أعرف جيدا أنهم من المؤكد ملوا مثلـــي، وأنهم تعرضوا آلاف المرات لمثل هذه الأسـئلة البلـــهاء، والمملة، والجارحة: "هل أنت ألمـــاني؟ لا؟ مجـــري؟ مـــن شيلي؟" [9] which country? كما يقال في الهند. هذا ليس كـــل شيء، فبمجرد أن تعطيهم هذه المعلومة فإنها تتبلـــور في عقولهم، تتجمد، وتصير العلامة التي تميزك، الصفة التي من بين الصفات الأخرى تشير إليك وتـــصفك. ستـــصبحين الروسية، الكمبودية، وستصبح النيوزيلاندي، الـــسنغالي، وهكذا (وصفت مؤخرا مجلة محترمة المخرجـــة انيـــسكا هولاند بـــ"البولندية في الخدمة"، واعتقد شخص آخر أنه من اللائق أن يبدأ مقالته عن أحد كتبي بهذه الجملة: "إنها كئيبة هذه الكندية")... بينما كانت بـــالطبع جنـــسيتك داخل وطنك بمثابة الهواء الذي تتنفسه، أي لم تكن تعـــني شيئا.

– لا، أنا كندية. أقول ذلك وأنا أشعر بالخجـــل البالغ، في حالة تلبس بجريمة الغربة.

---

[9]– من أي بلد؟ – بالانجليزية في الأصل. م.

- عجبا؟ ليس لديك اللكنة الكيبيكية.. على الرغم..

- لا، وذلك لأنني تعلمت اللغة الفرنسية من قبل فرنسيين...

- هكذا....

- إلا أنني عندما أكون في كيبيك، فأنا أستعيد بالطبع اللهجة الكيبيكية قليلا.

- ياه! كم هذا عجيب...

لا، ليس بالأمر الغريب، هذا طبيعي.

أحاول أن أسعدكم، أتفهمون، أياً كنتم، أحاول أن أتكلم " مثلكم" حتى أتمكن من الحديث معكم، أحاول جاهدة... (فقد أبكي بعد قليل...). وبما أن الأمر متعلق بالتقليد هنا وهناك، فلماذا سأدافع بغيرة عن لكنتي الباريسية في مونتريال، بدلا من تبني لغة مواطني بلدي الأعزاء؟

أتساءل إذا كنت أستطيع في فرنسا أن أسرب كلمة انجليزية وسط جملي دون أن أبدو متعجرفة... ودون أن أبدو معاقة في الوقت نفسه. كل يتعلق بمن أتكلم معه.

فالكلمة الواحدة، الجملة الواحدة، ستثير عدم الفهم لدى شخص ما أو الغيظ لدى الآخر وضحكة متواطئة من قبل ثالث.

أما في كيبيك (وبعكس ما نعتقد عادة)، فالمحادثات محلاة بالتعبيرات الانجليزية، العذبة في سخريتها. إلا أنها تلقائية وليست ماكرة (فالماكرة هي التي يرفضها الفرانكوفون الملتزمون، تلك التي ُفرضت عليهم من الخارج، والتي تنبثق كتلوث ما من أمريكا الانجليزية القوية، والتي نتشربها دون أن ندرك، ودون أن نريد).

في باريس أتحدث إذن اللهجة الباريسية وفي كيبيك الكيبيكية... وفي منطقة البيري؟ لا، ليس إلى هذا الحد. فأنا لا أجهد نفسي لكي أقلد اللهجة الإقليمية لجيراني الفلاحين، سأشعر بأنني استهزئ بهم. ولذلك: أأقلم لغتي مع لغتهم التي أتوقعها. أحاول جاهدة ألا استخدم كلمات مجردة، فكرية، باريسية، كندية، نسوية، أدبية... كلمات فقط... ملموسة، هكذا؟ آه، ثم... يمكننا قضاء سهرة رائعة دون أن نتفوه بأدنى كلمة. هذا يحدث لي كثيرا.

إذا كان لدى الآخرين أحكام سلبية مسبقة تجاه الأشخاص الذين يملكون لكنة ما، فأنا لديَّ تجاههم حكم

إيجابي: فاستشعار النغمات الأجنبية في صوت شخص ما يوقظ في داخلي، وبشكل عفوي، الاهتمام والمودة. حتى إذا لم أدخل في اتصال مباشر مع الشخص ذاته، أو إذا كنت على سبيل المثال أعبر حديقة عامة أو في مطعم ، فبمجرد أن أسمع صوتا له لهجة ما أرهف سمعي، أدرس هذا الشخص سرا محاولةً أن أتخيل الجانب الآخر من حياته، أي الجانب البعيد. أن يكون شخص من هايتي في مونتريال، أو ألمانية في باريس، أو صيني في شيكاغو، فهذه حكاية كبيرة، إذا انتبهنا لذلك. "أقول في نفسي، آه، هذا الشخص مقسوم لاثنين، له إذن حكاية ما ". وذلك لأن من يتكلم لغتين يعرف بالضرورة ثقافتين أيضا، ويعرف إذن الانتقال الصعب من واحدة إلى الأخرى، والتأثير المؤلم للواحدة على الأخرى. وله كل الفرص في أن يكون أكثر لطفا، و"تحضرا" وأقل صرامة من المتحدثين بلغة واحدة، الذين لا يهجرون أوطانهم

وحتى إذا هم فجأة شخص أعرفه ومقرب إليّ بالرد على التليفون بلغة غامضة بالنسبة لي أثناء مناقشة معه، فهذا يربكني. وفي الواقع، أعتقد أن الغربة كناية عن الاحترام الذي يجب أن نكنه تجاه الآخر. ذواتنا اثنتان على

الأقل، علينا فقط أن ندرك ذلك! ويبقى الحـــوار شـــبه معجزة حتى في إطار لغة واحـــدة. (فالـــذين يكرهـــون الأجانب، برسالتهم في التماثل، التافهة، ولكن كم هـــي مطمئنة، يسعون بالعكس إلى تقليـــل القـــسوة وإذابـــة الفروق).

وكم يذهلني دائما من يتكلمـــون ســـريعا ودون تفكير، سواء كانوا من الطبقة البروليتارية أو أساتذة، من هم ذلقو اللسان، فظون، كثيرو الهذر والإطالة في الكلام، من يستخدمون أربع كلمات بينما تكفي واحـــدة. وإلى اليوم تنتابني حالة من الـــ [١٠] self-consciousness تجاه الكـــلام الشفهي تشبه التعذيب. وكلما كان الموقف رسميا ومـــثيرا للخجل، كلما أصبحت أكثـــر حـــساسية أمـــام زلات اللسان، ما يجعلني أتفوه بكلمة بدلا من أخرى أو أرتكب أخطاء مفزعة في النحو. لذا أُفضِل، دون شك، الكتابة: ففيها يكون لديّ الحق على الأقل في الندم، في الشطب، أو التعديل. إضافة إلى ذلك، فـــإن لهجـــتي لا تظهـــر في الكتابة.

واللغة الأجنبية لا تمنع فقط من الثرثرة والإطناب، وإنما تمنعنا من التظاهر بالجدية. وفي حالتي على الأقل، فإن

---

[١٠]- الوعي بالذات – بالانجليزية في الأصل. م.

التحدث بالفرنسية بلهجة ما، و"لعب دور" الفرنكوفونية، يمنحني مسافة ملائمة بيني وبين كل "أدواري" في الحياة، ابتداء من كوني كاتبة إلى كوني أما. وبمجرد أن أغضب من أحد أولادي على سبيل المثال، تسوء لهجتي وأجد صعوبة في العثور على كلماتي: وهذا يثير ضحك من هو أمامي، وبعد لحظات أكون مجبرة على الضحك أنا أيضا.

إذن أين هي الأنا الحقيقية؟ إذا انتزعنا القناع تماما، ماذا سيكون شكل الوجه الذي يخفيه؟ المشكلة هي أنه عندما يبقى وجه بشري سنوات عديدة خلف القناع، فإنه يميل إلى التحول. لا يشيخ فحسب وإنما يصبح شاحبا، واهنا، متورما، من فرط افتقاره للضوء والأكسجين.

تعود إلى "هناك" والناس لا تكاد تصدق ما تسمعه. أهذه "هي" لغتك الأم؟ هل ترين الحال الذي آلت إليه؟ هذا مستحيل! لديك لهجة ما! لا تتوقفين عن إدخال مفردات فرنسية في كلامك بالانجليزية. هذا أمر سخيف! هل تتظاهرين أم ماذا؟ هل تحاولين إبهارنا بهيئتك الباريسية الفاخرة؟ هيا، هذا لا يفلح، لسنا مغفلين، نعرف أنك أنجلو-ساكسونية كالجميع... تكلمي بشكل طبيعي! توقفي عن ارتكاب أخطاء! وعن البحث عن كلماتك!

فلديك كلماتك، لقد تشرّبْتها مع لبن الأم ، كيف تجرؤين على التظاهر بأنك نَسَيتها؟ تكلمي بسرعة، هيا ، تكلمي بتلقائية، تكلمي بالانجليزية!!!

أنا أريد حقا... ولكن... أية إنجليزية؟ هذا موضوع آخر.

لديّ عدة لغات انجليزية الآن، كما لديَّ عدة لغات فرنسية.

الانجليزية في كالجاري، أو في منطقة بوسطن حيث يعيش ثلاثة أرباع عائلتي، تبدو كما لو كانت غريبة وشبه بريطانية. نعم، أنا قادرة على تقليد لهجة بوسطن، إذا وجب الأمر... إذا كنتم تفضلون ذلك... إذا كان ذلك سيشعركم بالارتياح... أو لهجة منطقة برونكس... أتفضلون لهجة نيو أورليانز؟ قولوا لي ما يلائمكم وسأحاول إرضاءكم.

وفضلا عن ذلك، أمتلك لغة انجليزية تربوية، مبسطة وحسنة النطق. لغة قمت بتدريسها لسنوات عديدة في وزارة المالية بباريس. لا يتكلم أحد هذه الانجليزية في الحياة الحقيقية، إلا أنني كنت مضطرة لتعلمها، وأنا قادرة

على استخدامها عندما يسألني سائح عن الطريق في منهاتن على سبيل المثال.

نتأقلم. نفعل ما نستطيع. نصير مجانين.

أتذكر الصدمة التي انتابتني عندما استمعت إلى الشاعرة الأمريكية سيلفيا بلاث وهي تتحدث في مقابلة للـ بي.بي.سي. قبل انتحارها ببضع سنوات. كانت تعيش قبل ذلك بثلاث سنوات في لندن وكان صوتها يتأرجح بشكل غير محتمل، ودون قدرة على الاختيار، بين لهجة المثقفين الأرستقراطية ــ اللندنية، والتي كانت قد اكتسبتها مع الوقت بتائها المفصلة وحروف العلة الثاقبة، واللهجة المصقولة والأنفية لماساشوستس، موطنها الأصلي.

قلت لنفسي آنذاك، هذا أمر طبيعي ولا غبار عليه، لكونها امرأة غير شريفة تتسكع في الشارع ونصفها العلوي مستور والنصف الآخر عار. الآن أذهل من أنني صرت أنا أيضا هذه المرأة غير الشريفة. عندما أقرأ فقرات من كتبي أمام جمهور انجليزي أقرأ بلهجة بريطانية حادة. اللعنة! لمَ هذه اللهجة البريطانية؟ تنهدل ذراعاي ولا تسعفني الكلمات. ليس لديّ حتى أعذار سيلفيا بلاث. لم

أعش قط في انجلترا... ففي النهاية، عندما تكـــون هـــذه اللهجة في أفواه الآخرين فإنها تكتسب علـــى الأرجـــح ظلالاً سلبيةً، ملكيةً، متعجرفة. فهل يرجع ذلك إلى أنني لا أطيق نفسي، حتى في لغتي الخاصة، إلاَّ بوصفي أجنبية، لها لهجة مَا.

حتما، حتما، أبدأ في فقد هذا الشمال.

...والقلم

وكما قلنا فإن المغترب هو *من يستطيع التـأقلم*. فالاحتياج الدائم إلى التأقلم والذي يحفز لديه وعياً حاداً باللغة يمكن أن يكون مناسبا للغاية للكتابة. إن اكتساب لغة ثانية يلغي الصفة "الطبيعية" للغة الأم - وانطلاقا من ذلك، لا يعود بالإمكان الحصول على شيء دون السعي إليه، لا في لغة ولا في الأخرى؛ فلم يعد شيء يخصك بحكم الأصل أو الحق أو البداهة.

لذا يولي الانتباه الكامل للكلمات المفردة، للتراكيب،ولطرق التحدث. (إنه بروست، بالطبع، الكاتب الفرنسي، والمريض في الوقت نفسه، الذي اعتزل الحياة الاجتماعية، هو من دفع هذا الوعي إلى مستوى التوهج. بروست ليس كاتباً فرنسياً كبيراً فحسب وإنما هو المتخصص الذي لا يضاهى في اللغات الفرنسية. ومثل

شكسبير بالنسبة لإنجليزية عصر الملكة إليزابث، فقد أنجز في أعماله، بهوس عالم حشرات، قائمة الألف لغة ولغة فرنسية التي كانت موجودة في فرنسا في بداية القرن العشرين). التراكيب والانحرافات اللفظية، القافية والتنافر اللغوي، الترجمات الممكنة والمستحيلة، أصول الكلمات، كل أنواع المرادفات والمترادفات والجناس، والتضاد، والأسماء المستعارة... "فالأسماء، أتعلمون، كما كان يقول رومان جاري... كلها أسماء مستعارة"

الهوية حقا دائما ما تكون خادعة، بما في ذلك الهوية الأسلوبية. غير أن المغتربين هم من يعرفون ذلك أكثر من غيرهم (ولكن من يتحكم في النتيجة؟)

اللغة الفرنسية التي أكتبها لها كل مميزات وعيوب اللغة المكتسبة. سواء كنت أستخدم لهجة شعبية أو مفردات علمية، صيغة الماضي المتكرر أو صيغة نصب الفعل، سيكون ذلك دائما بشكل "مكتسب"، مستخدم ومعروض بشكل مقنع نوعا ما. فنصوصي الأولى التي كتبت بالفرنسية، والتي تعود إلى منتصف السبعينيات، مليئة بالتورية: بما يشكل علامة على ما كان سائداً آنذاك

(جاك لاكان وهيلين سيكسو كانا يكثران في كتاباتهما مما كانا يطلقان عليه "ألعاب على المعنى"). وعلامة أيضا على إنصاتي الهوسي لهذه اللغة، إنصات أجنبية، منتبهة أكثر للاحتكاك والتوافق الصوتي للغة، أكثر من إنصات من كانت هي لغته الأم. (ففي عنوان قصتي:" حكاية أميبية" لعبت على كلمتي أميب و abîme (الهاوية)، هل انتبهتم إلى "حكاية في الهاوية"؟ ، من المحتمل ألا تكونوا قد انتبهتم لذلك، أما أنا فقد انتبهت، كنت أجد ذلك روحانيا للغاية آنذاك. "أريد أن أمارس المرير (l'amère) (الحب— l'amour) ، "ألعب دور الأب والحبيب (l'amant) (الأم — la maman) " وهكذا ، ad nauseam[11]..)

قيل إن الأسلوب هو تزاوج عاطفي بين شخص ما ولغته. ولكن هل يمكن أن "نتزوج" لغة متبناة، أن نندمج جسديا مع لغة مكتسبة بالتقليد الواعي؟ وإلا... كيف نستخدمها؟ وإن اتخذت من مارجريت يورسونار من الأكاديمية الفرنسية مثالا، أو ميشيل ترامبلان من البلاتو مون روايال ، الأمر سيان: ليس لي الحق في كلتا اللغتين الفرنسيتين. (طريقة تعجبي بشكل جاد في النص:

---

[11]- إلى حد الدوار - باللاتينية في الأصل. م.

"قسما" أو "اللعنة")! كان كـــامو وســـارتر يـــستطيعان كتابة "لا أريد قط" ، "هذا لا يعجبني البتة"، أما قلمـــي فيرفض بصق صيغ كهذه. يقاوم استخدام الماضي البسيط الذي يبدو له حتما متصنعا جدا ومتكلفا بالنسبة لفتاة من المروج الكندية، بينما عقلي يتحكم في تـــصريفات هـــذا الزمن المنمق منذ زمن سحيق.

وماذا عن هذا التعبير "زمن سحيق" ، هل هو تعبير متعارف عليه؟ أم يمكن أن يكون مقبولا في حالة الصرامة القصوى؟ هل يجب أن أعيد قراءة نصوصي حتى أتأكد من أن "صراماتي" ليست كلها "قصوى"؟

وكثيرا ما كان بيكيت يتسلى بهذه اللعبة، وكـــان يبدو لي دائما أننا لم ندرسه بالقدر الكافي ككاتب فرنسي أنجلو فوني، أي كمستكشف جريء ومضحك للأفكـــار المتعارف عليها مثلا. وذلك لأنه في اللغة الأجنبية ليـــست هناك أية فكرة متعارف عليها : فكل الأفكار غرائبيـــة. " can of worms "[١٢]كانت بالنسبة لي تفاهة حتى تعلمت "سلة كابوريا". فهاتان الطريقتان في التعبير والتي تعنيان تجمعـــا كريها ومبهما أصبحتا مثيرتين بالنسبة لي وذلك بسبب ما

[١٢]– علبة دود – بالانجليزية في الأصل. م.

بينهما من تباين. وتعد ازدواجية اللغة حافزاً فكريــاً في كل الأوقات. بيكيت يتحدث عن "تعلم الهلاك" ويشكو من أنه"محكوم عليه بالحياة"، وهو نفسه الذي يقــول:" لم تعتدل تلك اللبؤة التي تفقدني صوابي". و سيقيم كل أعماله على رفض فكرة القطيع والتي ينطوي عليها اللجــوء إلى اللغة نفسه. فوعد في كتابه "اللا مسمى" بــ "إصــلاح هذه الشرابية[١٣] لديهم"... ثم يفي حقا بوعده.

من أنا بالفرنسية؟ لا أعرف، كل شيء ولا شيء دون شك. عندما ألتقي بطلبة، فهم يندهشون كثيرا مــن الأساليب المتقطعة في رواياتي، الفقــرات المتنــافرة بــين الأسلوب الرفيع والأسلوب الركيك. يسألونني لم أقــوم بذلك؟ فأعترف لهم بأنني أجهل السبب. أقوم بذلك لأنه يعجبني، يبهجني ذلك... ولأنه من السهل عليَّ وأنا تلك الأجنبية عنهم هم أهل البلد أن انتهك القواعد وتوقعــات اللغة الفرنسية، تلك السيدة العظيمــة، الملكــة الجميلــة والقوية. وكثير من الناس الذين يعتقدون أنهــم كتــاب، ليسوا سوى خاضعين لخدمتها: ينهمكون حولها، يملسون شعرها، يعدلون من زينتها، يمتدحون مجوهراتها وحليهــا،

---

[١٣]- الشرابية، وهي تحريف للعربية، والمقصود بها هو الرطانة التي لا تفيد معنى. — مر.

يتملقونها، ويتركونها تتكلم وحدها. فاللغة الفرنسية لا تنضب بمجرد أن تندفع. لا سبيل إلى إحلال أخرى محلها.

أبدأ بجملة جديدة وسرعان ما تتشعب في ذهني وتتشعب: هل يجب أن أكتب "هل أنا أبحث؟" أم "باحثة أنا؟" أم "أيجب أن أبحث؟ "، أيجب أن أتجرد إذن من أي أسلوب لكي أصل إلى " الدرجة صفر" من الكتابة بحسب التعبير الشهير لرولان بارت؟ ومن المؤكد على كل حال أن بارت نفسه، والذي حضرت له دروسا لبضع سنوات، يلعب دورا كبيرا (أعترف له بالجميل وألعنه) في حساسيتي الشديدة، حتى لا نقول إحساسي اللغوي، وكذلك حذري الذي يصل إلى حد الهوس تجاه "التراكيب الجامدة" (ياه!!)، ميلي المعلن للأقواس، للنقطتين، للنقطة وفاصلة وللجمل الطويلة إلى حد ما.

في كتب ومحاضرات رولان بارت كانت " ملكة" الأسلوب الفرنسي العظيم مخلوعة، مقطوعة الرأس،وممزقة (حتى لو كان بارت نفسه يخلق أسلوبا متكلفا). وبدلا من الثقة الزائدة في الثروات الخاصة باللغة الفرنسية كنا نكشف عن حذر زائد، أعتقد الآن، تجاه المفاهيم المشفرة والتي تنقلها اللغة. نعم، لقد بقيَ ودام، "عصر الشك"

الذي وصفته ناتالي ساروت بمهارة خلال سنوات ما بعد الحرب العالمية. ("ادفنوا النحو أيها الرفاق، إنه تعفن!" كتب برنار نويل في سنة ١٩٧٥؛ أو "لا حكايات، كل شيء تعفن!")، ويؤكد بارت نفسه على أن فعل "كتب" يجب أن يكون فعلا لازما؛ فلتسقط الكتابة-الأداة، الكتابة التي لها دور والتي تحمل رسالة مهيبة موجهة؛ ولتحيا الكتابة الصافية والتي تحمل اللذة ،حيث الشكل والمضمون يمتزجان كالزيت والخل في الصلصة . وقد قام عدد كبير من تلاميذه بجعل فعل "كتب" لازما إلى أقصى حد لدرجة أنه ما عاد حتى يلطخ الورقة البيضاء. كانوا يخشون أن يبتعدوا عن الدرجة صفر وأن يقعوا من جديد في شباك الأسلوب – فيكشفون بذلك عن تعلقهم بالقيم البرجوازية المخجلة والتي يستحيل اقتلاعها!

كان أهم شيء بالنسبة لنا في ذلك الوقت، نحن المنافسين الآخرين لرولان بارت، أن نثبت أننا كنا ماكرين، أذكياء، منتبهين، مغرمين بالنظريات. كنا مدربين على البحث عن الأسطورة وعن الافتراض السياسي وراء كل جملة وكنا مقتنعين أيضا بغياب كل تطابق بين الخطاب ومضمونه لدرجة أن سرعة التصديق التي تتطلبها

الرواية صارت منيعة. بارت نفسه حلم بالرواية، إلا أنه ترنح أمام أول عقبة في طريقه: كيف يعطي لشخصياته أسماء وبالتالي يدّعي الإيمان بوجودها؟ هل من الممكن أن ننخدع لهذه الدرجة؟ فتنازل عن الرواية لأنه كان معاقا بسبب من رغبته الخاصة في فهم الحركة، كأم أربعة وأربعين كما في المثل الشعبي. نعم، فمهما قلنا، تحتاج الرواية لإيمان ويقين ، بل إنها الإيمان نفسه.

ولم تكن صدفة إذ تجرأت في عام ١٩٨٠على كتابة الرواية، أي بعد بضعة شهور من وفاة رولان بارت. إلا أنها كانت رواية يقظة، "ذكية"، ليست مخدوعة، أليس كذلك؟ رواية لم تشجع على الإيمان الساذج بحبكتها وأبطالها... وبلا شك، كان ذلك أحد الأسباب التي دفعتني إلى أن أقرر، بعد عشر سنوات تقريبا من ذلك، العودة إلى الكتابة بالانجليزية. كنت متعطشة إلى البراءة النظرية، كنت أريد أن أكتب جملا حرة وممزقة، وأن أستكشف كل درجات الانفعال بما في ذلك المحزن، ولم لا، وأن أروي حكايات في المستوى الأول، بحماس، مصدقةً إياها، دون أن أخشى التعليقات الماكرة من تلاميذ بارت وآخرين لا لزوم لهم. فكما هي الحال

بالنسبة لرواية ڤرچينيا وولف "ملاك البيت" ، كانوا قد بدأوا في تقييد خيالي، لكي لا أقول في إثارة أعصابي.

فماذا اكتشفت؟ (ها هي بداية حسنة لجملة فرنسية من فرنسا!). المعضلة الأسلوبية لم تكن تخص لغتي بالتبني فقط، وإنما كانت تقضي على إجادتي للإنجليزية أيضاً.

كنت قد تركتها طويلا، لغتي الأم. ولم تكن تعترف بي كابنتها. فكانت كل الاختيارات أمامي كما في الفرنسية، كان مسموحا لي أن أقلد صيغ هنري چيمس الأرستقراطية أو اللغة الأمريكية أحادية المقاطع ، وغير المصقولة والعنيفة لتوماس سانشس - إلا أنني لم تكن تحضرني أية نغمة "بشكل طبيعي". فلم يكن من المعقول أن أصير المتحدثة الأدبية بلسان سكان ألبرتا (ناهيك عن أن المكان كان محجوزا وكان من المستحيل العراك لكي أشغله)!...

المشكلة، أترون، هي أن اللغات ليست لغات فقط، وإنما هي أيضا world views [١٤]، أي طرق لرؤية وفهم

---

[١٤]- رؤى للعالم - بالانجليزية في الأصل. م.

العالم. هناك أشياء لا تترجم في اللغة... وإذا كان لـــديك أكثر من رؤية للعالم، فهذا يعني أنك، بشكل ما، ليـــست لديك أية رؤية.

في النهاية فقد واصلت، خبط عشواء، وأفلحـــت في السير، أنا لا أتذمر هنا إذ لديّ مأواي في كلتا جهـــتي المحيط الأطلسي. (ولدهشتي أيضا، فإن الكتب التي كنت أعتبرها "شديدة الفرنسية"، أثارت الاهتمام في كندا، وفي المقابل، فإن روايتي عن رعاة البقر والهنود قـــد تمتعـــت بصيت أكبر في فرنسا: فلا يجب أن نقلل من شأن قـــوة الغرائبية!). ويتملكني إحساس بالغ بالدوار، كلما قمـــت بترجمة أحد نصوصي من لغة إلى أخرى أو العكس، حيث أنتبه مذهولة: لم أكن أستطيع أبدا كتابة هـــذا باللغـــة الأخرى!

ماذا يحدث لو كنت أمتلك لغة ثالثة - الـــصينية على سبيل المثال؟ كان ذلك سيفرض خيالا ثالثا، أسلوبا ثالثا، طريقة ثالثة للحلم؛ ريلكـــه بالألمانيـــة، وريلكـــه بالفرنسية: شاعران مختلفـــان. أو تـــسفيتايفا بالروســـية وبالفرنسية. وإذا كان بيكيت اختـــار اللغـــة الـــصربو- كرواتية هل كان سيكتب: "نهاية الحفلة"، و"ياه! الأيـــام

الجميلة؟" وما نوع الروايات التي كان سيكتبها كونراد إذا لم يكن قد تخلى عن البولندية؟ ولماذا فقد كونديرا روح الدعابة عندما تخلى عن التشيكية؟ وهكذا... من نحن إذن؟ إذا لم يكن لدينا الأفكار نفسها، الخيالات نفسها، المواقف الوجودية نفسها، بل وجهات النظر نفسها في لغة أو أخرى؟

معضلة أخرى.

هذا محير، أتفهمون.

من أين الطريق إلى الشمال؟

الثنائية اللغوية المزيفة

هناك فارق بين المتكلمين بلغتين؛ بين الحقيقيين والزائفين.

الحقيقيون هم الذين، لأسباب جغرافية، تاريخية، سياسية، بل وسيرية (أبناء الدبلوماسيين)، يتعلمون منذ الصغر إجادة لغتين إجادة تامة وينتقلون من لغة إلى الأخرى دون أية صعوبة. يحدث بالطبع أن تتخذ كل لغة في أذهانهم مكانه مختلفة عن مكانة الأخرى: إحساس مبهم يتملكهم تجاه لغة من اللغتين — لغة السلطة أو لغة القوة الاستعمارية القديمة، أو لغة فرضت عليهم في المدرسة أو في عالم العمل- أو تعلق بالأخرى، اللغة الدارجة، الحميمة، الحسية، والتي غالبا ما تكون منفصلة عن الكتابة. إلا أنهم يتدبرون أمرهم وبشكل جيد.

أما مزدوجو اللغة المزيفون (صنف أنتمي إليه) فهذا شيء آخر. وأنا لا أعرف كيف يبدو مخ شخص مزدوج

اللغة حقيقي، لكنني سأحاول وصف كيف يحدث ذلــك بالنسبة لزائف كهذا.

عندما يدرك المتحدث بلغة واحدة شيئا ما مألوفا له فإن اسم هذا الشيء يحضره بشكل تلقائي. أما بالنسبة لي فإن الاسم الذي يحضرني يتوقف على اللغة التي أفكر بها في تلك اللحظة. أحيانا تحضرني كلمة في حين أنني أحتاج إلى الأخرى. أحيانا تحضرني الاثنتان في اللحظة نفسها أو متعاقبتين. وأحيانا أخرى يتعقد الموقف، يحتدم، يتجمــد حتى أنني قد أقتلع شعري. إذا تذكرت bagpipes [١٥] أنــسى cornemuse [١٦] والعكس صحيح. وكذلك مع زهرة مصاص العسل وزهرة العسل. هناك كلمات ترفض ببساطة، سواء في اللغة الأم أو في اللغة المتبناة، أن تقوم بالمشوار من عقلي إلى شفتي، كلمات لا أجدها أبدا في اللحظة التي أحتــاج إليها : معوز على سبيل المثال. وتجريبي. هنــاك بــالطبع الأصدقاء المزيفون الذين يتلاشون فينتهي بي الأمر إلى عدم استخدام هذه الكلمات، خشية الخلط بينهم بالفرنــسية والانجليزية: "تفاخري"، "منهك"، "علانية".

---

[١٥] مزمار القربة – بالانجليزية في الأصل. م.
[١٦] - آلة القربة – بالفرنسية في الأصل. م.

وبشكل عام، أجد صعوبة في تذكر الكلمات التي تستخدم في موقف ما، والتي تعني شيئا بعينه، بدلا من أن تعني الصنف الذي ينتمي إليه: أتذكر كلمة أداة وليس كلمة مفتاح إنجليزي، ماعون وليس مجرفة، سمكة وليس سمك قاروس، عصفور وليس النقار الأخضر، زهرة وليس زهرة السلبوت، وشجرة وليس شجرة المران. كلمات فرنسية أخرى مرتبة في ذهني في شكل عناقيد صوتية. هناك درج خاص بالكلمات التي تنتهي على سبيل المثال بلاحقة ما كالتاء المربوطة. وإذا تكلمت دون تفكير، سيكون الأمر كما لو كنت أبحث بحثاً عشوائياً في الدرج، ولديّ كل الاحتمال في أن أخرج بسبورة، أو ستارة، بدلا من صينية.

في يوم ما رأيت كلمة "دَرَجُ المدخل" (perron) بالصدفة مطبوعة على صفحة، ففقدت الذاكرة. عجيب هذا. إنها كلمة استخدمتها مرارا ، نطقت بها بصوت عال ومنخفض، حتى أنني كتبتها، ولم أهملها أبدا في الآونة الأخيرة... كيف تجرأت الكلمةُ على الانطفاء في عقلي، ولو للحظة، بينما كنت أدير ظهري؟ السبب هو أن هذه الكلمة لم تكن تعني لي أي شيء، لم تكن "تريد" أن تقول

(لي) شيئا. وكما نجد عند لويس ولفسون (في كتابه الانفصام واللغات) تقريبا، جاءني عدد من الافتراضات كالومض في ذهني، ابتداء من الـ "pero" بالإيطالية (بمعنى ولكن) انتهاء بـ perro بالأسبانية (بمعنى كلب) مرورا حتى بإڤيتا پيرون الشهيرة.وسرعان ما حذفت هذه الإيحاءات، ومكثت في فراغ مقلق لبضع ثوان.

وهذا لا ينتظم بمرور السنين، بل بالعكس. وبما أنني أمضي حياتي مع شخص فار من لغة أخرى غير الانجليزية، يحدث لنا أن نتأمل بفزع تصور شيخوخة مشتركة شبه انطوائية. في المرحلة الأولى ستتركنا اللغة الفرنسية تدريجيا، وستمتليء جملنا بفجوات في الذاكرة: "هل يمكنك أن تحضر لي الـ....؟ تعلم جيدا الشيء المعلق على الـ.. في الـ... ؟؟! (نتعجب من المكانة التي نخصصها للأسماء في ذاكرتنا: فهي الكلمات الأولى التي ننساها في اللغة الأجنبية، كما في اللغة الأم حيث يفقد المرء بمرور العمر أسماء الاشخاص. وهذا لأن التسمية والإسناد هما، كما يشرح لي هذا الزوج[١٧] الذي لديه بعض المفاهيم اللغوية، نشاطان مختلفان. والأسماء كالهلب

---

[١٧]- هو تزفيتان تودوروف - م.

تثبتنا بشدة في أرض الواقع، ودونها نطفو على سطح الماء، يتقاذفنا فضاء الأفعال والصفات). وفي نهاية المطاف، سنجلس جنبا إلى جنب، بعدما تنمحي كليا لغتنا بالتبني، في مقاعدنا الهزازة، نثرثر من الصباح وإلى المساء باللغة الأصلية لكلينا.

يعتقد بسذاجة بعض الناطقين بلغة واحدة أنه يكفي أن نمتلك كتبا وقواميس جيدة لكي ننتقل من لغة إلى أخرى. طبعاً لا! فهذه الأدوات تكاد تكون غير مجدية حتى بالنسبة للتواصل اليومي. والمرة القادمة التي تستقل فيها إحدى وسائل المواصلات العامة، تخيل أن أجنبيا يجلس بجانبك ويفرض عليك أن تترجم له حرفيا كل ما ستسمعه خلال رحلتك. هذه مهمة شبه مستحيلة. أنصتوا جيدا للأشخاص. ماذا يهمهمون في ذقونهم؟ " جو فاجر في جماله!"، "ياه!"، و"أنا مالي!"، " ايه كمان!"، "أنا طهقت بقى"، "طيب بقى أنا هازوغ!"، "أي حاجة!"... وإلى أن تصبح هذه الآلاف من التعبيرات الغامضة شفافة سنبدأ في فهم اللغة بشكل حقيقي.

غير أننا لن نعرفها أبدا كالمولودين بها. يحدث لي، حتى الآن، ليس كل يوم وإنما أكثر مما كنت أود أن

أعترف به، أن أكتشف كلمة فرنسية كنت أعتقد أنني لم أرها من قبل... على عكس أولادي الذين يعرفونها جيدا. كيف يكون ذلك ممكنا؟ فذاكرة الأولاد كالإسفنج (تخترقها المعرفة وتتراكم)، أما ذاكرة البالغين فهي كالمصفاة (تعبرها المعرفة)!

ومن ناحية أخرى، ليس لأننا تعلمنا كلمة نكون قادرين على استخدامها...

عشاء عند صديقينا أ. و س. يتحدثان لغة واحدة: دهشا عندما قلت إن هناك في اللغة الفرنسية كلمات، وطرق تحدث، أكون -أنا الأجنبية- غير قادرة على استخدامها في حوار ما.

- "ماذا على سبيل المثال؟"

-... الماضي البسيط.

- آه، هذا لا يهم، فقط الأكاديميون هم الذين يستخدمون الماضي البسيط عندما يتحدثون! هذا مضحك. وماذا أيضا؟

- على سبيل المثال.... : هذا يغيظني. هذا التعبير لا يمكنني قوله. أو بعض المصطلحات العامية: أو الكلمات

المستوحاة من الإنجليزية كـ news، أو challenge، أو look، أو الكلمات المختصرة، مثل perso (شخص).

-آه، هذا لا أهمية له، هذه ليست مسألة لغة بل مسألة جيل، وسط اجتماعي...

- إذن، *والحال هذه*، لا يمكن أن أنطق هاتين الكلمتين متشابكتين كما لو كانا كلمة واحدة.

- آه، هذا لا يهم، هذه مسألة لغوية، هذا تعبير قانوني..."

وهكذا. لم يصدقاني!.. لم يفهما في حين أفهمهما هما، وبالطبع أنتم أيضا، كلنا ندخل ونحذف كلمات ما وتراكيب ما في لغتنا اليومية. المنفيُ اللغويُ فقط هو من لا يقوم بذلك، إلا بعد تفكير ناضج، وعويص، وسواسي، لكي لا نقول بارانوياوي.

ليس هناك أصعب من أن "نتعامل" مع المعاني في اللغتين معا، بالنسبة لي أنا، مزدوجة اللغة المزيفة. أعيش ذلك كمعركة شبه جسدية داخل عقلي: معركة تخرج منها اللغة الأم منتصرة شئت أم أبيت. منذ بضعة أشهر كنت بصحبة صديقة في شفارتز، الحانة اليهودية الشهيرة

بشارع سان لوران بمونتريال. كانت صديقتي تبــوح لي، بالفرنسية وبصوت منخفض، بأسرارها عــن زواجهــا الأول. في منتصف الغداء، جلس على الطاولة التي بجانبنا أربعة رجال في ريعان الشباب، ممتلئو الجسم، ومعجبــون بأنفسهم. من المؤكد أنهم كانوا من مرتادي المكان، بدأوا في الكلام بصوت عال وبالانجليزية. وعلى الــرغم مــن رغبتي الشديدة في التركيز في السرد الحــساس، القــيم، المتردد، المرتعش ، المحاط بالدموع، لمرارة الحياة الزوجيــة التي عاشتها صديقتي الكيبيكية ، لم أنصت إلى آخر اللقاء سوى لتفاهات انجليزية: "Hey waiter! Could you bring me the head of the bread? Just tell the cook it's for me, he knows I am crazy about it. The head is the best part, you know. Never eat anything but the head of the bread![18] . وبعد الانتهاء من الأكل، أيقنت —مذهولة— أنني لن أتعرف أبدا على حكاية زواج صديقتي: فمثل هذه الأحاديث لا يمكن أن نطلب حكيها ثانية.

منذ أمد طويل وأنا أحلم، أفكر، أمارس الحــب، أكتب، أتخيل، وأبكي باللغتين ، كل بدورها وأحيانــا في

---

[18] "أيها النادل! أيمكنك أن تحضر لي رأس الخبز؟ قل للطاهي أنه لي، إنه يعلم أنني مولع به.أتعلم أن القمة هي أشهى جزء في الخبز. لا تأكل سواها !"– بالانجليزية في الأصل. م.

خليط مدهش. بالرغم من أنهما لا يشغلان حيزا متساويا في ذهني. فمثل كل الناطقين المـــزيفين بلغـــتين دون أدنى شك، لديّ شعور بأنهما تشغلان حيزا متباينـــا داخـــل ذهني. وبدلا من أن تكونا مستلقيتين بحكمة وجهـــا إلى وجه، أو ظهرا إلى ظهر، أو جنبا إلى جنب، أو متطابقتين، أو متبادلتي الأماكن بينهما، فهما متباينتـــان، متراتبتـــان: الأولى ثم الثانية في حياتي، الثانيـــة ثم الأولى في عملـــي. الكلمات تصرح به جيدا: اللغة الأولى، "الأم" التي نتعلمها منذ الطفولة الأولى، التي تحيطك وتجعلك ملكا لها، أمـــا الثانية، "المتبناة"، فأنت من يجب عليك تبنيها، إجادتهـــا، وجعلها ملكك.

كل متحدث مزيف بلغتين يجـــب أن يكـــون في حيازته بطاقة خاصة لعدم التناسق اللغوي، فبالنـــسبة لي أشعر بالارتياح وأنا أتكلم بالفرنسية خلال حديث ثقافي، أو مقابلة، أو ندوة، أي في كل موقف لغـــوي يتطلـــب المفاهيم والمقولات التي تُكتسب في ســـن متقـــدم. وفي المقابل، إذا كنت أرغـــب في الهـــذيان، أو في إطـــلاق المكبوت، أو السب، أو الغناء، أو الصياح، أو أن أتـــرك نفسي لبهجة الكلام ، فأقوم بذلك بالانجليزية. بمعنى آخر لغتي الفرنسية موجودة في الشطر الأيسر من المـــخ، أي

الجزء الأكثر تعقلا ونظاما والذي يتحكم في يدي اليمنى. بينما لغتي الأم، والتي تعلمتها في اللحظة نفسها التي اكتشفت فيها جسدي، والتحكم في العضلات العاصرة وكبت الممنوعات، مقسمة بين الشطرين (الأيمن، الأكثر كليةً، وفنية ووجدانية، ومن ثم الأنجلوفوني تماماً).

قابلتني مؤخرا سيدة اسكتلندية لتتحدث معي على انفراد، بعد مناقشة عن المنفى وتغيير اللغة في مدينة أجاسيو. قالت لي" لقد تزوجت من رجل من كورسيكا، وها أنا أعيش هنا منذ أكثر من عشرين عاما. لدينا أربعة أطفال. أتكلم الفرنسية بشكل دائم واعتيادي، دون أية صعوبة... ولكن، كيف أستطيع أن أشرح لك... هذه اللغة لا تعنيني ، وهذا يجعلني محبطة". كانت على وشك البكاء. "عندما أسمع كلمات fog, leaves, bracken[19] ، اللون الأمغر والبني، رائحة الخريف، الرطوبة، أرى المقصود وأشعر به.... أما إذا قالوا لي brouillard, feuilles, fougère[20] ، فأظل جامدة ، لا أشعر بشيء البتة."

---

[19]- السرخس، أوراق الشجر، الضباب - بالانجليزية في الأصل. م.

[20]- هي نفسها، ولكن بالفرنسية - م.

نعم. وذلك لأن هذه السيدة لم تذب، مثلي تماما، تحت جلدها، عندما كانت فتاه صغيرة بعد (كما فعل كل الفرنسيين، بمن فيهم أولادي) هدهدات المهـــد، الكـــلام الذي يقال بقصد المداعبة، الهمسات، حـــادي بـــادي، جداول الضرب، أسماء المحافظات، القراءات المتعمقة ابتداء من حكايات الحيوانات للافونتين وصولا إلى اعترافـــات روسو.

وتستكمل هـــذه الاســـكتلندية الـــتي صـــارت كورسيكية، أو هذه السيدة الكورســـيكية مـــن أصـــل اسكتلندي، حديثها قائلة: "بينما ينتابني حياء شبه مرضي، لا أتجرأ سوى بهمس "يا إلهي" بلغتي الأم عنـــدما أكـــون ثائرة حقا، في حين أن أكثر الكلمات بذاءة تـــأتي علـــى شفتيَ دون أدنى صعوبة بالفرنسية. أن أتفوه بـــ شرمو...، وسخة، كـــ... أمك، فهذا لا يثير عندي أي شعور."

كنت أفهم جيدا ما تعنيه. فرسالة الماجـــستير في علم الدلالات التي أنجزتها تحت صولجان رولان بـــارت، كانت عن هذا الموضوع الجاد والشائك معـــا: التحـــريم اللغوي. فالقَسَمُ الفرنسي (الكلمات البذيئة، سَبُ الدين، الشتائم) كانت بالتأكيد أسهل منالاً بالنسبة لي مما لأهل

البلد من حيث هي أدوات معرفة، انطلاقا من أن هذه الكلمات لم تكن لها أية دلالة شعورية خاصة. "نا... " أو "ملعلع": كانت الكلمتان غريبتين بالنسبة لي، حيث تأتيان من القاموس.

نعم، أظن أن هنا مربط الفرس: اللغة الفرنسية (وليس فقط الكلمات المحظورة) كانت، قياسا إلى لغتي الأم، أقل دلالة عاطفية وإذن أقل خطورة. كانت باردة، وأنا كنت أتناولها ببرود. كانت عديمة الأهمية بالنسبة لي. كانت مادة ملساء ومتجانسة، أي محايدة. أدرك الآن أن ذلك، في البداية، كان يعطيني حرية شاسعة في الكتابة، وذلك لأنني لم أكن أعرف قياساً إلى ماذا أو على أي أساس أكتب.

ولكن على الصعيد الآخر (وللأسباب نفسها) كان لديّ حرية أكثر من اللازم تجاهها. فلم تكن اللغة الفرنسية سيان فقط بالنسبة لي وإنما كنت غير مبالية بها. لم تكن تقول لي أي شيء، ليس أكثر مما هي الحال مع السيدة الاسكتلندية. لم تكن تحدثني، أو تغني لي، أو تهدهدني، أو تضربني، أو تصدمني، أو تخيفني. فلم تكن أمي.

وبشكل عرضي، تصادف تعلمي للغة الفرنسية في حياتي مع اكتشافي للكلاڤسان[٢١] (١٩٧١)، وبعد سنتين (١٩٧٣)، صاحب هجري للغة الأم هجرا مماثلا للبيانو. هذا النموذج الإرشادي السري، الذي قد يكون غير منطقي، يشكلني ويعيد تشكيلي منذ ربع قرن. الانجليزية والبيانو: أدوات ترتبط بالأمومة، انفعالية، رومانسية، يمكن التلاعب بها، شعورية، فظة، تبرز الفروق، مبالغ فيها، ُتفْرَضُ، ويعبر عنها بشكل صارخ وحتمي. . الفرنسية والكلاڤسان : أدوات حيادية، فكرية، مرتبطة بالمراقبة والتحفظ، والإجادة الدقيقة، طريقة تعبير أكثر دقة، أكثر رتابة، أكثر رصانة وتهذيبا. ليست هناك انفجارات أبداً، أو مفاجآت عنيفة، بالنسبة للفرنسية، أو للكلاڤسان. فما كنت أهرب منه وأنا أهرب من الانجليزية والبيانو جلي بالنسبة لي.

---

[٢١]- أداة موسيقية ترجع إلى القرن السادس عشر – مر.

الفطري، المكتسب والفطري

منذ أمد طويل، أخذت موقفا مضادا (كتبت، فكرت، تكلمت) من النموذج السارتري عن خلق الذات واعتبار "الثقافة كل شيء"، اختيار من أكون، أنا البالغ، العقلاني، سيد نفسي، الحر تماما والمستقل. كان سارتر يمقت الطبيعة، الوراثة، التناسل، كل ما يشبه من قريب أو من بعيد العلاقة المفروضة، المحددة مسبقا، المتأصلة في الحتمية البيولوجية. ليس هناك بالطبع سارتر فقط: هناك كونديرا، بيكيت، كافكا، كل هذه الجماعة المناهضة للكيتش: فلتسقط الأمهات! فليسقط الحب الأسري، العصافير المغردة وأعشاب أذن الفأر التي تنشر عطرها في أفق المروج الخضراء. وليحيا العكس: الحرية، الكفاح، البطل الفردي، فليحيا أوريست الذي يقتل أمه ويؤسس هكذا الفكر الغربي، فليحيا الاكتئاب، ودواء البروزاك، الوعي التراجيدي، المخ البشري الذي يقف وحيدا في مواجهه اللامعنى المدوخ الذي يلف العالم.

فالإنسان، وهو الذات الترانسندنتالية[٢٢] – والذي يسمى إنساناً انطلاقاً من هذه الفكرة– إنما يختار نفسه. يخلق نفسه. "ينتزع نفسه" مثل عشب ضار، مزود بأياد عديدة، من شباك الحتميات. ذلك الإنسان لا يريد سوى نشر المعرفة وليست الجينات، " تشكيل أرواح لا أجساد"، كما كانت تقول بوڤوار لكي تشرح تفضيلها التعليم في التمهيدي (كما لو كانت الأمهات لا يلعبن أي دور في تشكيل الأرواح!). إلا أن غالبية البشر لا يصيرون آباء وحسب، بل إن جميعهم لديهم آباء. أن تكون أبا أو أن يكون لك والد هذا يعني أننا مرتبطون بالآخرين بعلاقات حب وكره، علاقات وراثية، علاقات تاريخية.

كل هذه العلاقات التي لم نخترها،"العارضة"، ينظر إليها هؤلاء الكتاب كقيد: "ففي لغة أصغر شعب أوروبي، كتب كونديرا في "الوصايا المغدورة"، تعني العائلة باللغة الأيسلندية: fjölskylda ؛ وأصل الكلمة بليغ: skylda وتعني: التزام؛ و fjöl تعني: متعدد. فالعائلة إذن التزام متعدد. سكان أيسلندا لديهم كلمة واحدة تعني العلاقات الأسرية: fjölskydubönd ، "خيوط (bönd) العلاقات المتعددة". ووهم

---

[٢٢] مفارقة للتجربة وغير مشروطة بها – مر.

خلق الذات، أو الوَحدَة أو السيادة لهو سهل جدا، ندركه عن طريق غياب الأب. عندما نفكر في الأمر، نجده مؤثرا: جيل بأكمله من المفكرين الفرنسيين -سارتر، كامو، بارت، بطاي، وآخرون- ترعرعوا دون أب، أي دون "أنا عليا"، متخففين، أحرارا، لا تحكمهم حتميات. لم يجروا وراءهم أمتعة الماضي طوال حياتهم، فقد استطاعوا أن يرعوا الوهم الممتع بالصيرورة داخل حاضر أزلي، يتوالدون من جديد في كل لحظة ومقدر لهم الخلود. كتب سارتر في "الكلمات: "لا أتوقف عن إعادة خلق نفسي" ، "أنا المعطي والعطاء"، أو "أَفهَموني أنني كنت ابن المعجزة بدلا من أن أكون ابنا لميت". كلهم في النهاية كانوا يحلمون بألا يكونوا سوى أبناء أعمالهم...

أعمل ضد هذا النموذج، وفي الوقت نفسه يشبهني كثيرا. فبارتدائي قناع الفرانكوفونية، وبتواجدي في ثقافة أجنبية، هل أفعل شيئاً سوى اختيار أن أكون حرة ومستقلة؟ لقد أعلنت لذويَّ: أستطيع، أريد، يجب أن أقوم بكل شيء بنفسي. دون مساعدتكم، دون نصائحكم، دون أحكامكم. أخلق نفسي، يوما بعد يوم، وسنة تلو الأخرى. ألج هذا الوسط الآخر، هذا البلد الآخر، الذي

ليست لديكم عنه أية وجهة نظر، أو انطباع والذي تجهلون لغته. كما أتزوج من شخص من بلد آخر أيضاً، وليس لديكم ما تقولونه مرة أخرى. أسافر، أتثقف، أتبدل! جسدي مشكل عن طريق أطعمة ليست خاصة بكم، عقلي يتشبع بقراءات ليست ملككم، أصنع نفسي، أبتعد عنكم، ولا تستطيعون فعل شيء إزاء ذلك. ابقوا على الاتصال بي إذا أردتم، ولكن اعلموا أنكم، على أية حال، قد فقدتموني. ففي كل مرة نلتقي فيها ستجدون صعوبة في التعرف عليّ.

سيكون من المستحيل عليكم التعرف عليّ.

ثم...

وبعد خمسة وعشرين عاما، بينما أمشط شعري أمام المرآة، أرى — بين حاجبيَّ — تجعيدتين عموديتين صغيرتين.

تجاعيد جدتي هيوستون. كانت تقطب حاجبيها كثيراً، كما كنا نقول، لدرجة أن آثار انزعاجها بقيت محفورة، يستحيل محوها حتى عندما كانت تبتسم. ولكن... أنا، هل أقطب حاجبيَّ كثيرا لهذه الدرجة؟ هل

أصبحت صارمة، منتقدة، وشرسة مثل جدتي هيوستون ؟ لا أظن ذلك. ولكن... وهي أيضا، من المحتمل؟ الدجاجة والبيضة: هل كانت جدتي لديها تجاعيد بين الحاجبين بسبب سوء مزاجها، أم أنني نسبت إليها مزاجا سيئا بسبب تجاعيدها؟ هل انتقلت هذه الندبات من جيل إلى أخر عن طريق كروموزومات عائلة هيوستون، بمنأى عن الحياة النفسية للوجه الذي يحمل هذه التجاعيد؟ يا إلهي... كم هذا مفزع.

بوصولك إلى الأربعين يبدأ الفطري في اللحاق بك.

في العشرين، ننجح في تشكيل هيئتنا بأنفسنا، بقليل من الجلد والحظ. إنها ناعمة، سمهرية، حريرية ومتلألئة، معدلة من الكوافير ومحلات أحدث الأزياء: ندعي" أننا صنعنا أنفسنا بأنفسنا"، ليس لشخصٍ من فضل علينا!

أما بعد مرور عشرين عاما: مفاجأة غير سارة. انبثاق العيوب الوراثية شيئا فشيئا بشكل حتمي ودون جدال، تلك العيوب التي كنت تستاء منها عندما كنت

طفلا: التجاعيد التي كانت تعطي لجدتك هـذا المظهـر العابس، الدوائر المزرقة أسفل عيون أبيك، الزغب في وجه عمتك الكبيرة، حب الشباب عند والدتك، البصيلات في أقدام والدها، وهكذا.

آه, لو كان الفطري يكتفي باسترجاع جـسدك فحسب! إلا أنه يريد الروح أيضا.

هذه المواقف المسيحية، كالإحـسان، والرحمـة، والعفو، والتي كنت تسخرين منها وأنت الثورية الفرنسية الشابة المتصلبة، الجريئة- تسترد ساحتها بدهاء.

وبعد المعاشرة شديدة الطول للـسخرية الدائمـة والسطحية، استعاد الإخلاص جاذبيته، والذي كان يعـني ولسنوات طويلة السذاجة، بل والحماقة.

وبعد الإعجاب بالتعبير الساحر برهافة لواحد مثل باسكال كينيار، تتعطشون للحكايات الطويلة والجميلـة والجيدة الحبك على طريقة چيم هاريسون.

وبعد تقديرك للإتيكيت البيزنطي للكؤوس الثلاث والملاعق الست، تطمح إلى شيء من البساطة على المائدة: "ناولني الكاتشب!".

وبعد المواربات المدوخة للياقة الفرنسية (تريدين أن تغوي السيد نيمور بالتظاهر بأنك لا تعرفينه، بينما أنت على دراية بهويته مثلما هو يعرف هويتك، على الرغم من أنك ما رأيته قبل هذه اللحظة، ، أليس كذلك يا سيدة دي كليف؟)، ننشد الصراحة العنيفة للمحادثات الأمريكية:"كم تكسب؟".

رامو وكوبران يتخذان سحنة شاحبة وذابلة فجأة، وتذهل من الاستماع إلى چوني كاش أو نات كينج كول.

كل ما كنت قد لفظته من قبل يجب أن تعيد النظر فيه الآن، أن توازن بين ما له وما عليه، وأن تتعرف على جوانبه الإيجابية.

سارتر، كونديرا، كافكا، بيكيت وكل الجماعة المناهضة للأسرة، أَلَم يلاحظوا شيئا عندما نظروا إلى أنفسهم يشيخون في المرآة؟ أبناء وآباء أعمالهم، أنجحوا في

المحافظة على الوهم بأنهم طوال حياتهم مجرد كتب وليس سوى ذلك؟ فقد أوقف سارتر سيرته الذاتية عند سن العاشرة (والتي أعطاها عنوان "الكلمات" وقسمها إلى "القراءة" و"الكتابة"). لن نعرف أبدا إذا كان قد شعر أم لا بداخله، عند لحظة كتابتها، أي باقترابه من الستينيات، بقوة الجينات، بشيء كالميراث العضوي، النفسي، الأخلاقي...

نحن نشبه آباءنا جسدا وروحا، سواء رضينا أم أبينا، وكذلك أجدادنا، والشعب الذي ننتمي إليه، مواطني بلدنا.. فهم يحددون ملامحنا: ليس بشكل كامل ، بل جزئيا. أن تكون يهوديا أو أسود، رجلا أو امرأة، عاهرة أو لصا، كندية أو فرنسية، هذا موجود في الواقع وليس في نظرة الآخرين فقط، وهذا يترتب عليه نتائج. فالالتزام، مثله مثل الحرية، هو جزء لا يتجزأ من هويتنا الإنسانية.

وفي نهاية المطاف، نحن لسنا أحرارا كليا، سوى في رغباتنا، وليس في واقعنا. وهذه الأمور على درجة واحدة من الأهمية: نسيان حدود الواقع شاق ،كما أظن، و مستوجب للوم، كنسيان دوار الخيال.

شقاء الغربة

في نهاية سبتمبر ١٩٥٩، بينما كان والداي يقومان بإجراءات الطلاق في غربي كندا، كانت المرأة التي ستصير زوجة أبي تصحبني لزيارة أهلها في ألمانيا، في بلدة صغيرة تسمى ايميرات. كانت الرحلة طويلة وقاسية: ثلاثة أيام وثلاث ليال بالقطار لعبور كندا، ثم يوم من مونتريال إلى نيويورك، ثم الباخرة لمدة أسبوع: أسبوع من العواصف المستمرة (كما كنت أظن)، أسبوع لم أكن أستطيع خلاله ابتلاع شيء وإلا تقيأته على الفور. ثم تليها ساعات طويلة من جديد بالقطار بين روتردام وكولونيا ، وساعات أخرى بالسيارة، بين كولونيا ومونشنجلادباخ وايميرات، قبل الوصول أخيرا إلى وجهتنا ...

وفي ليلة وصولنا، إلى مترل عائلة والدتي الجديدة، في مدرسة البلدة حيث كان جدي الجديد يعمل مدرسا بها، كانت جدتي الجديدة قد أعدت لنا وليمة بحق: أنواع

مختلفة وغريبة من لحم الخنزير (اللسان، عجين الكبد، جبن)، سلطة الكرنب والبنجر، بيض بالخل، خبز أسود، جبن جامد وذي رائحة عطنة... كل ما كان على المائدة كان يعد غريبا بالنسبة لي، ناهيك عن الأشخاص الجالسين حول المائدة، أو عن اللغة التي كانوا يتحدثون بها. كان الأمر غريبا بالنسبة لي- ولذا مهدداً أيضا. لا أستطيع أن أعبر عنه بشكل آخر.

هل ابتدأت في البكاء؟ من المؤكد أنني احتفظت برأسي منخفضة طوال العشاء، دون أن ألمس ما كانوا يضعونه في طبقي. ثم تفهمت ويلما، الأخت الكبرى الشابة والجميلة لزوجة أبي الجديدة، وضعي السيئ للغاية. وقرب نهاية العشاء قامت خلسة وارتدت معطفها ثم غادرت المنزل. وبعد ساعة، وكان الليل قد إدلهمّ والمدعوون كانوا قد انصرفوا منذ وقت ما، عادت بابتسامة منتصرة على الوجه، وفي يدها علبة حبوب "كيلوجزّ". كانتَ قد قطعت خمسين كيلومترا بالسيارة لكي تشتريها.

أعتقد أنها كانت أعظم وجبة في حياتي، هذه الحبوب التافهة للإفطار الأمريكي التقليدي، والتي ابتلعتها

في التاسعة مساءً داخل مطبخ غريب، في منزل غريب، في بلدة غريبة، على حافة وجود جديد سأتعلم فيه الحياة من غير أمي. لذا أكن لعمتي ويلما اعترافاً أبدياً بالجميل. ولا يهم إذا كانت هذه الشابة الألمانية ذات العيون العسلية والابتسامة غير المتجانسة قد صارت منذ ذلك الوقت عجوزا مجنونة تتسكع بمفردها في منزلها وسط ثلاث وثمانين قطة بغائطها. في تلك الليلة استطاعت أن تفهم الاحتياج الملح لفتاة كندية إلى أن تتلقى شيئا ما مألوفا لديها.

يقولون لك: ياه! إنك محظوظ لأنك تستطيع السفر! لقد سافرت إلى الهند، واليابان، والمكسيك، وتُمبكتو، إنني أحسدك، هذا رائع!

أوافق أن السفر إلى بلد أجنبي شيء مثير. إلا أنه مربك أيضا. مخيف. مشتت. لا أعلم كيف أستطيع نسيان ذلك. ففي كل مرة أعبر حدودا ما، أتذكر: أهكذا هو أيضا. شقاء الغربة. أنا امرأة ناضجة الآن: في الشارع، حتى في إيطاليا أو إسبانيا، توقف الرجال عن ملاحقتي، أو ملامستي، أو النظر إليّ، أو الهمس بالبذاءات في إذني. كما أنني اكتسبت آلافا من أشكال الثقة وحُسن

التصرف ولكن... البلد الأجنبي ما يزال يخيفني الى الآن. بمجرد وجودي بالجانب الآخر من الحدود: اللغة. حائط محكم. أناس لا تعرف مقاصدهم. يضحكون، فلا نعرف لمَ. يغضبون، يثارون، يتشاتمون، نجهل لمَ. إنه أشبه بالكابوس، إذا فكرنا في الأمر. حتى إذا كنا نشبه ظاهريا السكان الأصليين، والحال ليست هذه دائما، يُستدل علينا سريعا. يكفي أن نتفوه بكلمة واحدة فيعرفون: نحن لسنا من هنا. تقول je [بالفرنسية] "أنا.." لا. ليس je . يجب أن نجد شيئا آخر. فنسكت، نتلعثم، نتمتم، لا نعرف ماذا نقول. نخرج دليلنا الأخضر، نتصفحه على "مصطلحات دارجة"، نلجلج بعض المقاطع فيما يلبث الآخرون في الضحك، والنظر إليك بسخرية. نصير بلهاء.

ويحدث ذلك أيضا في باريس، بالرغم من قلة تشويهك للفرنسية. فالأشخاص الذين لا يتكلمون أية لغة أجنبية، والذين يعتقدون بداخلهم -ولهذا السبب- أن اللغة الفرنسية لغة "طبيعية"، "مسلم بها"، "منزلة"- هم أكثر اندهاشاً أمام جهودك البائسة في تدبرك في لغتهم. أنت نفسك تعرف سبعا أو ثمان أخرى، إذا حدث ذلك، أما إذا تجاهلت وصل النعت بمنعوته، فحذار! سيتخذون

المظهر المتسامح المشفق نفسه قليلا، ولكــن المترعــج في الوقت نفسه (أتقوم به عن عمد؟)، كما لو كنت قذفتهم في وجوههم بملعقة مليئة بالبطاطس المهروسة.

في الغربة: نصير أطفالا من جديد وبالمعنى الأسوأ للكلمة: نخضع للطفولي، أي للصمت، نكون ممنوعين من الكلام. أغبياء تماما وعاجزين! (اللغة الانجليزية تصف ذلك جيدا، فتجمع بين الصمت والبلاهة في كلمــة dumb . لا يبقى سوى الحياة اليومية حيث تعد كل تفصيلة صــغيرة جبلا. أين مكتب البريد، كيف يعمل التليفون، ما كــل هذه العملات النقدية، لا نعلم شيئا، كم يجب أن أدفــع للرجل الذي يجر عربة الــ rickshaw[٢٣] ، هل ينصب عليّ ، لماذا يضحك، ماذا تقول الصحف، أريد حبوبي! يا أمي!!!

أتذكر في بولندا ذات مرة، سألت رجلا عجــوزا بالانجليزية في الشارع. نظر إليّ دون أن يفهم ثم رد علــي بالبولندية. لم أفهم شيئا بالطبع. في النهاية هو أشبه بالمعتوه تماما بعد النظر إليه جيدا، كانت لوجهه ســحنة عنيــدة

[٢٣]- عربة الرينجيكيشا في الشرق الأقصى، ذات عجلتين- مر.

وبليدة. كان يجسد البلاهة المطلقة، كنت على وشك الغضب لكنه هم فجأة بمحاولة للتكلم بالفرنسية: الفرنسية! الفرنسية! كلمات نقية وشفافة، بسيطة، إنسانية، سامية! ياه! أي نعم! أفهمك، يا سيدي! أنا مولعة بك! أشكرك، أشكرك!

يجب ألاّ أنسى هذه القصة أبدا. المغترب أبله. إنها اللغة الفرنسية التي تقوله هذه المرة، بمقاربة المعنى بمعنى غريب.

بربري: "أجنبي، غريب، جاهل"، هذا ما يقوله القاموس. أساسها الصدويّ : بربر، وتستخدم لوصف كلام الأجانب غير المفهوم للأجانب". يكون أبله ومهدداً كل من لا يمكنك التواصل معه بالكلام. حتى إذا اجتهدنا في ترديد خطابات غنائية عن الموسيقى- اللغة - العالمية - التآلف بين الجماعات، التواصل بالقلب، جمال الفعل، أو ما لا أدري أيّ هذيان آخر، تبقى الكلمات على الرغم من ذلك ودون منازع أدوات تواصل.

لديّ حلم ما، كحلم يقظة. في هذا الحلم أنا عملاقة وغير مرئية كالرب. أنحني نحو فرنسا، أمسك بجان

ماري لوبان من رقبته كقطيطة، ثم أضعه في بلد أجـــنبي. (هو من يكرر دائما:" بلى، بلى، نحن نحب الأجانـــب... في بلدهم! هكذا).

في ذلك البلد ليس لدى چان ماري أية سلطة. إنه مثلي ومثلكم. أي، مجرد شـــخص عادي،عـــار، أقـــصد مرتدي ملابس ليست زيا رسميا. إنه ليس رئيس أي شيء، إنه لا يمثل أية سلطة، ليس له الحق في إعطاء أوامـــر، أو الإساءة لأي شخص أو الصراخ أمام مكبرات الـــصوت. إنه مجرد إنسان، مكشر قليلا، قبيح بعض الشيء، ولكنـــه إنسان قبل كل شيء. أبيض وأحمر البشرة بشكل مثير، إلا إنه مع ذلك إنسان. إذن يجد نفسه في هذا البلد الأجنبي، ولنفترض في مدينة صغيرة في مجاهل الصين، أو الهنـــد، أو أفريقيا، أينما كان، فالاحتمالات كلها ممكنه. ومن حوله يذهب سكان المدينة لأشـــغالهم، يعملـــون، ينتـــشرون، يتناقشون... وهكذا لا يفهم چان ماري شيئا مما حولـــه. أتخيله هناك، في شقاء الغربة يصير صغيرا، في منتهى الذوق والطيبة. جان لوبان مذعور، خاضع وذليل ، محاولا بكل الطرق أن يرضى عنه السكان الأصليون للمدينـــة. أيـــن سينام تلك الليلة؟ كيف تعمل الفنادق هنا؟ وأولاً، هـــل

توجد فنادق هنا؟ أستأذنك يا سيد... أعذرني.... هـــل تتكلم الفرنسية؟ لا؟ فنـــ...دق؟ أنـــا مجهـــد، أريـــد أن أنام... هكذا، أنام! ثم... أنا أتضور جوعا....، أتضور... هل تفهم؟ هنا! لا؟ أستسمحك... مطعم؟ مط...عم؟

چان ماري لوبان لا يعرف قطاً في هذا البلد. لا يوجد حتى العمة ويلما لكي تأتي له بكرواسان بالزبد.

هذا كل شيء. هذا هو حلمي. هكذا.

الخليط المتجرف

يرسلون إليّ مقالا نشر في شهر أغسطس عام ١٩٩٨ في الـ تورنتو ستار، بعد فوز فرنسا الباهر في مباريات كأس العالم لكرة القدم. يقول المقال في الواقع: ربما تعتقدون بأن حماس الفرنسيين للزرق، ذلك الفريق الأسود-الأبيض -المغربي، يعكس سياسة عامة للكرم والتسامح العرقيين. وإذا كنتم تؤمنون بذلك فأنتم مخطئون تماما. "العنصرية حية ترزق في فرنسا المعاصرة، على النقيض التام لمبادئ ثورة ١٧٨٩. وستظل الحال هكذا إلى أن يسير الفرنسيون على نهج النموذج الكندي الذي يعرف مساواة متعددة الثقافات حقيقية لكل المواطنين".

وما تعنيه كلمة "مساواة متعددة الثقافات" ليس واضحا. وبما أن هذه العبارة ليست بين قوسين فيمكننا أن نفترض أنها جزء من الحكمة العامة. أما ما يقع بين قوسين في المقابل فهي كلمة الأجانب. "هناك ما يزيد عن أربعة

ملايين "أجنبي" في فرنسا"، يستكمل هكــذا المقــال. ثم يعرض الوضع المأساوي لحال هؤلاء "الأجانب"، حيــث يختلط الحابل بالنابل، الجيل الثاني من المغاربــة بالمغاربــة والكاناك واليهود.

فكندا، والتي تضع كلمة أجانب بين قوسين، هي بلد قام أساسا على الأجانب ، حيث أن الكلمة ليست لها أية وظيفة لتمييز ما، وذلك لأنهــا تعــني أي شــخص والجميع. في عام ١٧٨٩، أثناء هذه الثورة المعروفة الــتي تمتدحها التورونتو ستار، كان ما يزال أمام كندا ٧٨ عاما لكي تحقق وحدتها. هل سألنا الهنود والسكان الأصــليين (الاينويت[٢٤]) إذا كانوا متفقين مــع مبادئنــا "متعــددة الثقافات"، قبل أن نغتصب أراضيهم لكي تزدهر عليهــا ثقافاتنا نحن: الفرنسية، الانجليزية، الايرلندية وهكذا؟ ثم ما نلبث أن نهنئ أنفسنا بعد ذلك بغياب العنصرية لدينا. هيا تعالوا، تعالوا، سواء أتيتم من ســري لانكــا، أو مــن أوكرانيا، أو من العربية السعودية... أترون، هناك أماكن كثيرة! ملايين الهكتارات تحت تصرفكم! أقيموا، كما لو

---

[٢٤]- الاسم الأصلي للإسكيمو.- مر.

كنتم في بلدكم، استمروا في الكلام بلغات أجنبية في البيت مع تعلمكم الانجليزية (أو الفرنسية عند اللزوم) لأغراض الحياة العامة...

هكذا هو الخليط الكندي. كما يقول لي أخي في خطاب مؤخرا: " الوعي بتعدد الثقافات المتشرب بالنهج الأبوي للكنديين تقابله، ومهما بدا ذلك مفارقا"، الوطنية الكيبيكية: طريقتان للشعور براحة ضمائرنا مع اعتبار أنفسنا متفوقين على من ننظر إليهم كغرباء".

من السهل أن نكون متعددي الثقافة، عندما لا نملك ثقافة خاصة؛ هذا ما أعنيه.

هذا ما أريد أن أقوله.. وفي الوقت نفسه، فأنا أخون نفسي بقول ذلك بما أنني مهاجرة، أنا الجاحدة للأمة، التي خانت الشمال الكبير. وذلك لأن هذه النظرة لكندا، نظرتي أنا، والتي قمت بعرضها بتهكم، لهي خاطئة. فكندا هذه بلد "خارجي" تماما، رسمي، مزيف، مصنوع من خطابات عامة وفكر إرادي. وفي الواقع، أنا على يقين بأن كندا بلد يطيب العيش فيه. فنسيج الحياة الحقيقية التي يعيشها الأشخاص هناك يوما بعد يوم، ثري ومتنوع.

لديهم أدب وسينما، ومسرح، ورقص على مستوى عال. لديهم طريقة عيش وطرق تحدث، يستثمرون بالحب والاعتناء أحياءهم، وأراضيهم وكنائسهم وبيوتهم ومقاهيهم ومطاعمهم المفضلة، حيث تعني كل هذه الأشياء الثقافة.

ولأني أجهلها هذه الثقافة، ولأني لست داخلها، لا أشعر بها، لا أتذوقها، لا أستطيع أن أتملكها، فأنا أعلن، أنا الحازمة، البعيدة، والمتعجرفة بدوري: لا توجد".

العنب حصرم في النهاية.

نسبية النسبي

ما المهم؟ تساءلنا من قبل (نعم أعرف : فأنا أقول شيئا ونقيضه. فلا أبالي ثم أغير موقفي. أبحث عن دليلي... إذن، من الطبيعي أن نتوه للحظات؟)

ما المهم؟ بالنسبة لأغلبية الأحياء، الإجابة عن هذا السؤال بديهية. فما يهمني هو ما هو قريب مني. مجموعة من الدوائر الحلزونية وأنا في الوسط: عائلتي، أصـــدقائي، جيراني، مدرستي، أبناء بلدي. فما يعنيني هو ما يعنيني.

بالنسبة للمنفي، ليست هناك مسلمات في هـــذا الموقف أيضا. أقرباؤك بعيدون عنك. في البداية تظل تفكر فيهم كثيرا وتتأثر بكل ما يحدث لهم. تبذل كل جهـــدك حتى تمحي المسافة عن طريق البريد، التليفون، شراء جرائد بلدك...

وبفضل تقلبات الزمن هذه تبدأ حياتك تـــدريجيا بألا تشبه حياة في الغربة وتصير حياة فحـــسب. فطالمـــا تجوب بلد المنفى في كل الاتجاهـــات، وأنـــت منبـــهر، ومندهش من كل الأشياء الجديدة التي تراها، فأنت لست سوى سائح مثل الآخرين. هذا قد يبقى لأســـابيع، بـــل لشهور. نخرج من وضعية السائح في اليوم الذي نعيش في البلد الغريب أشكالا جديدة من الشقاء والسأم (فعند أول تجربة حب حزينة لي في باريس، في شهر ديسمبر، اشتريت قالب شكولاتة سوشار من مخبز والتهمته كـــاملا وأنـــا أجوب في الشوارع الرمادية والثلجية للحي الثالث عشر. ظلت هذه اللحظة محفورة في ذاكرتي وأثـــرت فيَّ ربمـــا بمقدار تأثري لحصولي على الجنسية لكي أصبح فرنسية).

ثم نلاحظ تدريجيا أن اتصالاتنا بأهلنا بدأت تقل. أصدقاء من هنا بدأوا في احتلال مكان أصدقاء هناك. فهم الذين سيطرحون عليك من الآن فصاعدا أسئلة لها أهمية: هل تحسنت إثر هذا الزكام؟ ورئيسك، هل سيزيد مرتبك أم لا؟ هل قرأت ما هو مكتوب في اللوموند عن...؟ مـــا هي مشاريعك في عطلة نهاية الأسبوع؟ أترى هذا الجـــو البشع؟

أصدقاء الماضي لا يبالون بك، العكس صحيح. لماذا الاستمرار في المراسلة لو أنكم لن تعيشوا حياة مشتركة بعد؟ ومن المحتمل أنك ستؤسس في يوم ما أسرة لك في هذا البلد الغريب. ثم تمر السنوات. أهلك يتقدم بهم العمر ويشيخون، أخوتك يغيرون وظائفهم وشركاءهم، ينجبون أولادا، يتزوجون، يطلقون، لم تعد تتابع. من المؤكد أنك تتذكر الأحداث إلا أنك لا تتوحد معها كسابق عهدك، يجب أن تبذل مجهودا إراديا لكي تشاركهم أفراحهم وآلامهم...هنا أيضا العكس صحيح.

وصار الغرباء الذين كانوا يحيطونك عند وصولك إلى فرنسا مواطنيك. ومصيرهم هو ما يهمك الآن، لأنه صار مصيرك أنت أيضا. ومن كثرة التقائك بهم، وقراءتك لجرائدهم والتحاق أولادك بمدارسهم، نجحت شيئا فشيئا في فهمهم، في التأثر على النحو الذي يتأثرون به، وفي أن تضع نفسك مكانهم، وفي النهاية لم يعد يوجد "كما"، فأنت أصبحت في مكانهم. أنت فرنسي، تنتخب، تفرز الأصوات، تشارك في المناقشات الاجتماعية والسياسية للأمة الفرنسية... أما الحياة السياسية في موطنك الأصلي ومقارنة بالحيز الضئيل الذي تعطيه فرنسا للحياة السياسية في موطنك الأصلي، فإنها تصير "غرائبية" بالنسبة لك.

هنا أيضا شعور بالذنب: أن نشعر بأننا بعدنا نهائيا، وأن ما كان يعد غاية في الأهمية بالنسبة لك لم يعد يعني شيئا.

من نحن إذن؟
نسبية. إجبارية، جنونية، مدوخة.

وعندما تعود إلى هناك، عندما تمضي بعض الأسابيع في بيتك، أي في البيت القديم والذي لم يعد بيتك وإنما يبدو كما لو كان كذلك، ويستقبلونك كما لو كنت "عدت أخيرا"، لا تعود تسمع عن فرنسا، والتي تشغل حيزا ضئيلا في الجرائد وفي تفكير أصدقائك. مكان ملئ بالمألوفات (النبيذ، الموضة، الفكر، العطور، الأكل الجيد، التصنع، السطحية)- مألوفات تتفق دون شك ، كما هي الحال عموماً بالنسبة للمألوفات، مع حقائق، إلا أنها تخفق تماما في تذكيرك بواقعك أنت، بالمسار المعقد لحياتك الفرنسية اليومية.

لم يسمع أحد عن المشاجرة بين توبون وتيبري، أو عن فضيحة "إلف"، أو عن ظاهرة هوالبيك، أو عن مشكلات الضواحي. لم يسمع أحد عن إضرابات تلاميذ

المدارس، أو الإضرابات في وسائل المواصلات، أو فشل التأمين الاجتماعي، أو تأنيث أسماء المهن، أو أسبوع العمل الذي يتألف من خمس وثلاثين ساعة. يعرفون دي بارديو ولوبان فقط، فمعرفتهم عن فرنسا المعاصرة تنتهي عند هذا الحد.

فما الذي يجب علينا استنتاجه من ذلك؟ أن الحب نسبي، أن صلة القرابة صدفة، وأن الوطنية تعلق اعتباطي؟ ما المهم؟ نعم، أنا أكرر نفسي ، لقد قلت لكم ذلك من قبل، هنا تكمن المشكلة. إلا أنني مقتنعة بأن كل شيء ليس نسبيا، أو، على الأقل، ليس نسبياً إلا بشكل نسبي. وبعد سنوات طويلة من الصراع أمام هذا السؤال، توصلت إلى إجابة ما. هذا هو أحسن ما توصلت إليه حتى يومنا هذا: المهم هو ما يمكن ترجمته.

وليس من الضروري أن تتخيلوا محاوراً مباشراً ما. ولنأخذ صديقا متخيلا من "هناك"، وأن يكون خيرا، ذكيا، فضوليا ، ومثقفا. تضعونه في مقعد مريح في أذهانكم وتشرعون في الحديث معه وبلغته الأم عن الخلاف بين توبون وتيبري. قد يحرك مستمعكم رأسه بشكل مهذب، إلا أنكم تشعرون بأن ابتساماته لا تعدو

أن تكون تثاؤبا متنكـــرا ، وذلـــك لأن الحكايـــة بـــلا أهمية.الآن، تَحَدَّثْ عن الخـــلاف بـــين الفرانكوفـــون والأنجلوفون في كندا، وابذل كل جهدك لكـــي تجعـــل الحديث مثيرا بالنسبة لمستمعك من منطقة الـــبيري. هـــل أفلحت؟ نعم. ذلك لأنه أمر ذو أهمية. لكنك إذا تحدثت عن الخلافات بين مختلف القادة المستقلين ستفقد جمهورك بسرعة. وهكذا. هذا يساعد على التمييز بين إعصار ميتش وزوبعة في كأس شامبانيا.

كتاب جيد، غير صخرة في بركة، دائما ما يكون قابلا للترجمة. النكات الجيدة أيضا. فكاهات المهرج تسعد الفرنسيين اليوم، إلا أنه في خلال شهر أو اثـــنين، هـــم أنفسهم سيكونون قد نسوا ما كان مـــضحكا إلى هـــذه الدرجة. وودي آلان كوميـــدي وذلـــك لأن فكاهاتـــه تضحك باللغة المجرية مثلما تضحك بالانجليزية.

كل الآلام من الممكن ترجمتها، سواء كانت آلام أسنان سكرتيرة في إيداهو، أو كارثة طبيعية كالفيضانات في الصين.

أعتقد أن هذا معيار جيد. والترجمـــة يمكـــن أن تستخدم كحماية في أوقات الشدة: عندما تتواجد مـــثلا

في سهرة تهكم " فرنسية تماما"، حيث يجب إظهار تمكنك بتهكمك من كل شيء، وأن تنجح في عدم البوح بما في داخلك. وإذا جعلك ذلك تتألم فهذا يعني أنك لا تجيد اللعب أو أنك تلعب اللعبة وأنت تكره نفسك. يكفي أن تقوم، في سركَ، بترجمة كل شيء إلى لغتك حتى يتحسن حالك على الفور: فأصدقاؤك المتخيلون سيكونون هم أيضا منبهرين مثلك بهذا الشر المجاني.

إلا أن هناك مصيدة . هناك دائما مصيدة ! لقد خمنتها . فالمستمعون الحقيقيون أقل صبرا، وتهذيبا وحضورا من المستمعين المتخيلين. وليس من المؤكد ، حتى لو قمت بالترجمة الجيدة، أن يجد مستمعوك اهتماماتك هذه مثيرة بالنسبة لهم، تلك هي الحال.

وتبقى أمامك الكتابة دائما.

الأخوات الثلاث الجميلات

وكما أكدنا من قبل بالنسبة للّهجات، فإن النساء لديهن عن هويتهن فكرة أكثر رهافة مما لدي الرجـــال. فدائما كن مجبرات على التأقلم؛ هن معتادات على ذلك. عند الزواج، يجب أن يقدرن على تقبل فكرة تغيير لـــيس فقط أسماءهن (وهذا ضخم! هل تتصورون ذلـــك أنـــتم الرجال ؟ تخيلوا كل ما يستثمره أحدكم في الاسم العائلي على المستوي الرمزي والمعنوي وتصوروا أثر هذا التغـــيير عليكم: مرة، مرتان، وربما عدة مرات خـــلال حيـــاتكم الراشدة!) و إنما، في نهاية الأمر، ولاءهن أيضاً فيما يخص الديانة، الوطن، اللغة... هن يعرفن إذن كل هذه الأمـــور النسبية وغير المطلقة.

يتوحد الرجل بشكل إرادي وبطريقة عمياء أكثر. فهو مستعد للقتل أو للموت في سبيل ما نخبره بأنه ذاته أو

ملكه، اسمه، كرامته، بلده. المرأة تعرف أن هويتها يمكن أن يُعتدى عليها، وأن تتبدل. يمكن أن تصير بين يوم وآخر رومانية. وأن أبناءها يمكن أن يحاربوا ضد إخوتها. وبأن ذاتها التي ولدت بها يمكن أن تتبدل، في كل مقوماتها الأساسية.

فأنا الكندية الانجليزية الآتية من الغرب، كان مصيري أن أتزوج على سبيل المثال من أستاذ جامعي من مقاطعة كالجاري فكان لي ثلاث حموات. (دعونا نبكي على هذا الخطأ، لكي لا نقول هذا الانحراف اللغوي للفرنسية والتي تجبرني على استخدام كلمة "أمي الجميلة" هنا لكي أعني والدات رفاقي والتي تطلق أيضا على زوجة الأب وهي الكلمة التي استخدمتها من قبل: على الرغم من كونهما شخصيتين متباينتين تماما!). ثلاث نساء متقدمات في العمر، أكِنُ لهن صمتا محترما، ثلاث نساء كريمات استقبلنني في بيوتهن كزوجة (أو ما شابه ذلك) ابنهن، وتعاملن معي بالبساطة الحارة التي عادة ما نخصصها لأفراد العائلة الأكثر قربا.

الأولى، امرأة سمينة وفظة، لم يكن لديها أي عمل سوى كونها أما يهودية. وكانت تعيش في منزل جميل محفور في الوست برونكس، بالولايات المتحدة الأمريكية. الثانية، معلمة من الطبقة البرجوازية الصغيرة على المعاش، ناشطة علمانية واشتراكية، كانت تعيش في مجمع سكني حزين في ضاحية مدينة بورج، في فرنسا. الثالثة، أمينة مكتبة سابقة، هزيلة الصحة، ممسوحة ومحبة للآخرين كانت تعيش في منزل لطيف من الخشب في ضواحي صوفيا ببلغاريا. كنت مفتونة بالتداول أمام السبيط المحشي، ، والروستبيف مع الفاصوليا، والجوفيتش. كنت أهز رأسي، ضاحكة ومتنهدة في اللحظات المناسبة، منصتة لهن وهن يتذكرن رفيقي عندما كان طفلا صغيرا.

وإذا استطعت أن أكون كل ذلك معا (وكنت أقدر على ذلك، وفي هذه الأيام ليس الأمر مستحيلا) فما هي إذن الهوية التي لي الحق في المطالبة بها؟ الإجابة ليست مع ذلك" كل الهويات وأية واحدة". فلم أستقر في صوفيا أو البرونكس، وإنما في باريس. أنا فرنسية لأنني أشارك الفرنسيين حياتهم بشكل كامل. إلا أن لديّ ميزة ليست لدى السكان الأصليين: أنا أعرف أن "كون المرء فرنسيا"

هو هوية من بين هويات عديـــدة، نتيجــة لآلاف مـــن المصادفات الجغرافية والتاريخية، أقيس حظي وأقـــيس مـــا يتبقى عمله.

الذاكرة المثقوبة

نقول لأنفسنا بأن هناك منطقة مقدسة. هناك على الأقل جزء من ذاتي لا يمكن اجتياحه أو تجريدي منه أبدا : وهو ذاكرتي.

(فقد قرأنا جميعا عن الحكايات المؤثرة لرجال في الحبس، ولكي لا يفقدوا عقولهم كانوا يتدربون على تذكر أسماء زملائهم في الروضة... أو كل سوناتات موتسارت للبيانو التي تعلموها في المراهقة... تمارين للتركيز والتي إذا مورست على مدى أسابيع وشهور، كوسيلة لتجنب الملل واليأس، تكون لها نتائج مذهلة.)

فالذاكرة إذن لا يمكن اغتصابها. وبالنسبة لي فذكرياتي : "روحين في زكيبة" أو "حرامي في مولد" .

للأسف هذا أيضا خطأ. وهم آخر بالطمأنينة يفشل . فذكرياتنا أيضا (وليس فقط أذواقنا، آراؤنا،

التزاماتنا) تتشكل حسب ما نعيشه كل يوم. و الـــذاكرة أيضا متغيرة، مراوغة، هاربة، وصعبة المنال.

في سنة ١٩٩٥، في منتصف شـــهور الـــصيف، وصلني خطاب من سوزان برنس والتي كانت أعز صديقة لي في المدرسة وبعدها مباشرة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمري. ثم مرت عشرات السنين دون أن يصلني منها أي خبر وإذ فجأة تعثر عليّ فتقذفني بخمس وثلاثين صفحة مكتوبة عن قصة حياتهـــا الراشـــدة: دراســـاتها، زواجها، نضالها السياسي، عملها كنحات، أولادهـــا... وبعد سنوات طويلة أقامتها على الـــساحل الغـــربي وفي جنوبي الولايات المتحدة الأمريكية، كانت قـــد عـــادت للإقامة تحديدا في المكان الذي قابلتها فيه ، أي في مـــترل والدتها في عمق الغابة بنيو هامبشاير. كنت وأنا منحنيـــة على المنضدة في مدخل مترلنا في البيري، محاطة بأصـــوات أولادي (الفرنسيين)، العـــصافير (الفرنـــسية) ، البقـــر (الفرنسي)، تحت الشمس (الفرنسية) التي كانت تـــدخل بغزارة من خلال النوافذ، أتصفح، وقد أعمتني دمـــوعي، الكلمات الانجليزية لسوزان، المكتوبة، وفي كل الاتجاهات، على صفحات صفراء بهوامش مزينـــة بزخـــارف. ("لم تتغير...").

وكان من المتوقع أن أسافر إلى نيوانجلاند في الشهر اللاحق، فوعدتها بإشعارها بذلك. وهكذا التقينا في يـــوم جميل من أيام سبتمبر في مكتبة على بعد بضعة كيلومترات من المكان الذي افترقنا فيه قبل عشرين عاما. أوفر عليكم صدمة اللقاء ، الأجساد غير المتعارف عليها، الجمل المنافقة كـــ "لم تتغيري"، تأمل صور أولادنا غـــير مـــصدقتين. جلسنا في مقهى نظيف في منطقة غـــير مـــسموح فيهـــا بالتدخين حيث شربنا جعة بعد الأخرى ونحن نـــضحك ونبكي معا وسط الآلام اللذيذة للحنين... إلا أننـــا وبعـــد بضعة كؤوس اكتشفنا أن هناك شيئا غير عـــادي، عـــدم ارتياح ربما..؟

وذلك لأنني في كل مرة كنت أقول فيها: "هـــل تتذكري..." كانت سوزان ترد: نعم. وفي المقابـــل، فـــإن واحدة من كل ذكريين كانت تستدعيهما سوزان لم تكن تعني بالنسبة لي شيئا. لم تكن هناك أية طريقة لإحياء أي أثر لقصة هروب قمنا به معا على سبيل المثـــال... كنـــت أحاول جاهدة أن أفتش في ذاكرتي رأسا على عقب (هل احتفظت به تحت عنوان "١٩٧٠"، أم "الهروب" أم "أول دروس الإيروتيكا"؟)، أن أفـــتح كـــل الأدراج، كـــل

الخزانات، بل أن أرفع كل السجاجيد، في حالة ما إذا كنت قد كنست هذه الذكرى تحتها، يوم كنت أقوم بتنظيم كثيف، ولكن لا شيء. "أعتذر، لا أتذكر". فتغتاظ سوزان: "هذا مستحيل! كانت تردد. هذا مرتبط بحياتي! حياتي معك. رويت ذلك لكل الناس. إنه ضمن أهم ذكرياتي الأساسية وأنت جزء منه. لا يمكن أن تكوني قد نسيته. ماذا يصير معي إذا لم تعودي تتذكرين؟".

إحساس بالذنب مرة أخرى.

على الرغم من أن التفسير بسيط. هذه الذكريات كانت قد ماتت جوعا. فالذكريات يجب أن نزورها من حين إلى آخر. يجب أن نغذيها، أن نخرجها، نتعشها، نظهرها، نحكيها للآخرين ولأنفسنا. وإلا تذبل.

فهذه الذكريات لم تكن قد أحييت منذ أكثر من ربع قرن من حياتي الفرنسية. لم يكن هناك أي منظر، أو شخص، أو حدث يطلق الإشارة الكهربائية لتذكرها، لإيقاظها. ودون أن ألاحظ، وبشكل هادي، انطفأت تلك الذكريات. ففي ذاكرتي (أي الصورة التي أرسمها لنفسي وعن تاريخي) لست الشخص الذي قام بالهرب مع سوزان

برنس أثناء رحلة مدرسية في الجبال الخضراء عام ١٩٧٠... لم نوقف سيارة عابرة معا. لم نركب مع أشخاص مريبين، ثملين، ومسلحين... لم نصب بفزع رهيب... لم يحدث شيء من ذلك. قد أتوحد مع "نانسي" التي مرت بكل ذلك كما أتوحد مع بطلة رواية، إلا أنني لا أتعرف عليها بوصفها "أنا".

(بعد عودتي مباشرة إلى فرنسا أرسلت لسوزان نسخة بالانجليزية من روايتي " سبتمبر ثلاث مرات" والتي أحكي فيها ذكرياتي عن تلك السنوات بالتحديد. فلم تتصل بي سوزان بعد ذلك أبدا).

قبل أن نصاب بمرض الزهايمر نحن بنية، أو حكاية مليئة بالثقوب، أو كتاب ممزق الصفحات. هذا ينطبق على الجميع. إلا أن المغتربين (هنا أظن أننا سيكون لدينا أعلى نتيجة) يتنبهون قبل الآخرين.

ننسي غير الضروري ... والضروري. غير المهم والمهم جدا. التافه وغير المحتمل. (كالسمة الفريدة للطفولة والتي لا مثيل لها، فهذا العيب الجلي للذاكرة هو معرفة يتقاسمها المغتربون مع المحللين النفسيين).

وعلى العكس، إذا كنت سأعود لتمضية بقية حياتي في أمريكا، فإن تفاصيل حياتي الفرنسية ستمحى تدريجيا من شدة عدم استدعائها في ذاكرتي. وفي عام ٢٠٢٥ ستلقاني صديقة ما من منطقة البيري في نيويورك وسنتناول القهوة معا أمام متحف المتروبوليتان وستقول لي: " هل تذكرين تلك العاصفة الشديدة في البيري عام ١٩٩٩، عندما فقد جاك سقف منزله؟ " سأنظر إليها مقطبة حاجبيَّ (حيث ستصبح تجاعيد جدتي هيوستون أكثر عمقا) وسأسألها: " لكن... عمَّ تتحدثين؟ من هو چاك؟".

ذواتنا الأخرى (١)

اليوم مكثت بالمترل.

اليوم لم أخرج لتأمل انعكاسات الشمس والسحب على نهر السين بعد المطر، وتصادم الضوء الوردي والأمواج الصغيرة الهائجة.

اليوم لم أذهب لزيارة بالوعات باريس وللمرة الألف مع ابني.

ولم أذهب أيضا للتتره في الجبال روكيت مع ابنتي.

لم أمر لإلقاء السلام على أمي في مونتريال، في مترلها الجميل الكامن في الجبل، الذي يرى ناطحات السحاب لوسط المدينة وحتى الكباري العملاقة التي تعانق نهر سان لوران.

ولم أزر كذلك أبي في نيو هامبشاير حيث مازال يقوم بإصلاح منزله القديم على شاطيء النهر، الذي سيتجمد قريبا ولن أذهب للتزحلق عليه.

لم أعدُ بجنون وبهجة على أرصفة أمستردام الواسعة في حي منهاتن وسط الحطام والأوراق الميتة والتي كانت ترقص السربندة وسط الرياح العاصفة.

لم أذهب لتناول إفطار سخي في مقهى بسانت روز دو نور، على نهر السجني، مع صديقي الكيبيكي العزيز چان موريسيه. (يا إلهي! كم كنت أشعر برهافتي و هشاشتي ذلك اليوم من شهر أكتوبر الماضي عندما كنت أستمع إلى چان يتحدث مع مديرة المقهى الجميلة ذات الشعر البني الطويل من أصل هندي وهو من أصل "إنويتي" واللغة الفرنسية بينهما في حديث حميم غير رسمي وتلقائي، هذا التواطؤ المراوغ لهذه اللغة حيث كانت تنبثق، كالمداعبات، كلمات من لهجة "الچوال[٢٥]" وذكريات طفولتهم المشتركة، النهر والممر البحري، البواخر الكبيرة: العائلات الكبيرة، الفقيرة ومتوسطة التعليم، برد الشتاء

---

[٢٥]- لهجة فرنسية – كندية، تتميز بتباينات صوتية ومعجمية ونحوية وبانتشار الكلمات الانجليزية فيها.
- مر.

والأطباق التي كانت تحضرها أماهما لمواجهة هذا الـــبرد: سحاء الخضراوات والبطاطس، أما الفطيرة اللحم فكانت لعيد الميلاد فقط. نعم، كانت بينهما ثقافة مشتركة. وهنا أمامي، أنا أسيرة غيرة كثيفة، كانوا يتبـــادلون بـــصوت خافت وناعم إشارات تستدعي هذه الثقافة، وأيقنت أنني لا يمكن أن أعيش هذا إلا مع أخي الذي يسكن على بعد خمسة آلاف كيلومتر من منزلي ، هذا الاعتراف التلقـــائي والمريح جدا: "أنت منا، نحن معا، متشابكي الذراعين على هذا الكوكب.")

مكثت إذن بالبيت.

إلا أن كل عالم من هذه العوالم اجتاحني بشكل أو بآخر اليوم. عن طريق الهاتف، أو البريد، أو الصور، أو، ببساطة، الذكريات.

نحن نعيش جميعا فترات أعمارنا المختلفة في التراكم (وليس في الالتباس، إلى ظهور مرض الزهايمر). فكلمـــة قطار تستدعي معها أصداء القطارات الكندية لطفـــولتي، وقطارات ألمانيا، والقطارات التي قرأتها في الروايات أو التي

رأيتها في السينما ، وقطارات معسكرات المـوت، الـتي نخشاها عن طريق التذكر ، القطارات التي يبتعد صـفيرها في ظلام الليل، في مكان ما في مضيق "لاالييه" والتي تملؤني بحنين مؤلم وغامض معا...

فجأة يدهشني ذلك من وضوحه القوي: إن كنت قد صرت روائية فهذا لأنني كنت مجبرة مبكرا جدا علـى تعلم الحفاظ على حب من هي في الأساس رمز التجـاور والحضور، والتي كانت في حالتي قـد صـارت بعيـدة ومستحيلة المنال، حفاظاً مقنعاً، لكي أطمـئن نفـسي وبالأحرى لكي أبقى على قيد الحياة. وكل التحولات التي طرأت علي، الهويات المتعددة الـتي اتخـذتها لنفـسي ثم استبعدتها، البنات الجميلات الثلاث، الأستاذة، النموذج، المثقفة النسوية، كل ذلك لم يكن في تحليلي النهائي سوي طريقتي في طرح سؤال (على خلاف رومان جاري ومـع ذلك على غراره): "هكذا، يا أمي؟".

حريتنا في الذهاب إلى مكان آخـر وأن نكـون آخرين في أذهاننا هي وهم حقيقي. والرواية سواء قرأناها أم كتبناها تذكرنا بهذه الحرية... وبأهميتها البالغة. الأمـر

يتعلق بالحرية: التي تعني ألا نرضى بهوية واحدة (دينية، قومية، جنسية، سياسية) منحت لنا مع الولادة.

فالحياة سيل لا يتوقف من الانطباعات، ذات التنوع المخيف. نتلقاها، ونصنفها وننظمها ، بردود أفعال تتسم بالمرونة، أكثر تقدما من أحدث الحاسوبات الإلكترونية. نعرف كيف نكون ألف شخص مختلف بالتناوب، ونطلق عليهم جميعهم "أنا" . نستخدم المصطلح نفسه لذكر الأنا الصديق،الأب، القاريء، المتنزه، الأنا الحالمة، المتأملة رافدة مذبح قديم، الأنا المواطن، المستاء عند قراءة جريدة المساء، الأنا الجار، الموسيقار، الناعس، الحالم، الأنا السكير، الضاحكة، المدخنة، المشاهدة، الأنا النرجسية، المستغرق في التأمل، الفظ، الأنا المنتبه والضعيف. وأمام عجزنا عن صيد كل الذوات التي تفلت منا في شباك اللغة، كالسمك الحي الفضي الذي يتلألأ، ويهتز ويتزلق في جنبات الكلمات، نسترجع هذا السيل الشاذ المبهر للحياة عن طريق ترهات فارغة: "نعم، أمضيت صيفا جميلا، أنا بخير، بخير".

أن ننفتح تماما على هذا السيل، على هذه التعددية، على قدرتنا هذه على التلقي، هو أن نقع في الجنون. ولكي

لا يحدث ذلك، نصير قصيري النظر وفاقدي الذاكرة. نعين لوجودنا حدودا شديدة الصرامة. نجوب المكان نفسه يوما بعد يوم، نسميه "حياتنا" والـ"أنا"، وهذا تحصيل حاصل، هو من يجوب هذا المكان. نقرر على سبيل المثال: "حياتي" هي حياة ناقد أدبي، حياة أستاذة رياضيات في الضواحي الباريسية، حياة مغني راب، حياة عاهرة، أو حياة راهب بوذي معتكف في دير....

يسمح لنا الأدب برفض هذه الحدود الخيالية والضرورية معا، والتي ترسم وتعرّف ذاتنا. وعندما نقرأ نترك ذوات أخرى تجتازنا، نترك لها مكانا دون مشقة، وذلك لأننا نعرفها من قبل. والرواية هي التي تحتفي بهذا الاعتراف بالآخرين داخلنا وبذاتنا في الآخرين.

هذا هو الجنس البشري بامتياز.

ذواتنا الأخرى (٢)

الناس الطبيعيون ينتقلون من مرحلة إلى أخرى من حياتهم كما تبدل الثعابين جلودها. إنهم بالطبع يتحولون، يتطورون، يتكلمون بإرادتهم عن "المراحل" المتتالية في حياتهم...أما الهوية، أي إحساسهم بذواتهم، بما يفعلون ومن ثم أين يجب أن يكونوا، فهو شيء بديهي نوعا ما.

ليس الأمر كذلك بالنسبة للمغترب.

لا شيء سوى الدوار ، الدوار دائما وأبدا ، من فكرة أنه كان من الممكن أن نصير هكذا، أو أننا كان علينا أن نفعل ذلك، وأن ما صرنا إليه ينقصه بالأخص الواقع. اليقين، التماسك.

أين أنا يا إلهي، من أنا، من أين أتيت، وبالأخص لماذا؟ Hier ist kein Warum [٢٦] أليس كذلك؟ وليس هناك أي

[٢٦]– هنا لا علل لهذا السؤال، بالألمانية في الأصل. م.

سبب في أن جعلتني يا إلهي أولد في كالجاري، من نسل هذين الشخصين، في هذه اللغة الأم وفي هذا المحيط الاجتماعي! لاحظ جيدا أنني لا أعترض هنا. أنا محظوظة بشكل عام، هذه ليست المشكلة، ألاحظ فقط: هذا شيء تافه. أنا على حق، أليس كذلك؟

هذا الأمر مقلق بعض الشيء (وفي الوقت نفسه أدرك بأن محيطي وتربيتي هما بحق ما يسمح لي بأن ألقي عليك هذه الأسئلة. امرأة تعيش في كابول تحت نظام طالبان لن تجازف بإزعاجك هكذا.)

وكل منفي لديه اليقين التام والراسخ في لاوعيه، والمدان في الآن نفسه بشكل منتظم كضلال من قبل وعيه، بأن هناك جزءا من نفسه، أو بمعنى أصح، ذاتاً أخرى له، تظل تعيش هناك. (هنري جيمس هو الذي أثار وإلى الأبد في قصته "The Jolly Corner" هذا اليقين غير المنطقي).

أنا أعلم ولكن. أنا أعلم أنني أعيش في باريس منذ كل ذلك الوقت، ومع ذلك فإنه من المستحيل ألا أتوحد، في الوقت نفسه ، مع الشفافية النقية و المضيئة لصباح يوم من أكتوبر بنيويورك، تحت سماء زرقاء تتحدى كل

منافسة، في هذه الشوارع الجامدة، ذات الكفاءة والتي تعكس المعدن والزجاج، وسط الجموع المتبهرجة سريعة الخطى، وسط الأزقة الرمادية، بين الحوائط الجرانيتية العالية، قرب المحطة الرئيسية الكبيرة، قرب مبنى الأمبير ستيت حيث كنت أعمل (في الدور الثامن والخمسين فقط) كسكرتيرة مؤقتة، قرب مدرسة جوليار حيث كنت أعزف البيانو كل الأمسيات ولمدة سنة، بجانب السنترال بارك، أمام متحف التاريخ الطبيعي حيث كنت أفك طلاسم مئات الساعات لشرائط مثقفتين خرقاءين بعض الشيء، الأولى عالمة اجتماع والثانية محللة نفسية.

الأمر لا يتعلق بزيارة ، أو رحلة، بل بنمط ما. كانت لدينا عادات... ولم تعد بعد. لا أعرف سوى تجارب ذهنية قليلة أكثر غرابة من تلك التي تتألف من إعادة إحياء –حركة بعد الأخرى– روتين ما ولى ذهنيا.

لا، بجد! كيف يكون ذلك؟ أتريدين قول أنني لم أعد أسكن؟ لم أعد أسكن بالمرة على أي مستوى من الواقع، تلك الشقة الضيقة في الطابق الأسفل لعمارة متهدمة في الشارع رقم مئة وست وتسعين في منطقة البرونكس، حيث كنت أصارع الصراصير (الكرب) على

مدار عامين، مستمعة لنحيب نساء يهوديات كن يجلسن كل يوم على درج مدخل مترلي لكي يسترحن وهن عائدات من التسوق، وكن يتكلمن بصوت عال وقوي، من الناحية المواجهة تماما للمدخل، حتى وأنا جالسة إلى مائدة حجرة المعيشة محاولة قراءة فرويد أو أرسطو، كنت دائما ما أنجذب إلى حكاياتهن، مسقسقات ومتنهدات، عن التيبس في الأقدام، أو أبنائهن الجاحدين، أو عن السبيط الذي يجب أن يحشى...؟

لا؟ لم أعد أقيم هناك؟ أهذا حقيقي؟ و"البلو بار" لفندق الجونكان في منهاتن، بموسيقاه الجاز والحبوب المملحة للقرمشة، برجاله المسنين والمهذبين، الطيبين، الذين يتناقشون بصوت منخفض، ثم كل هاتيك الشابات السمهريات والمتزينات ، اللابسات الأسود، المبتسمات والمغريات.... هاتيك الشابات التي كنت أنتمي إليهن في ذلك الوقت.. كل ذلك سيستمر يوما بعد يوم ، سنة تلو الأخرى، ولن أكون هناك؟ أبدا بعد؟ هذا غير معقول....

في يناير ١٩٩٧، في مقهى بنيودلهي، لفتت انتباهي امرأة شابة غربية، كانت حليقة الرأس وزهيدة الملامح، كانت تتباهى بثياب طويلة للرهبان البوذيين، وبشكل غير

مناسب كانت غارقة في قراءة رواية، مما أثـــار انتبـــاهي. فالتويت حتى أتمكن من قراءة العنوان: كان "خفة الكائن التي لا تحتمل" لميلان كونديرا. وعندما قامـــت لمغـــادرة المكان ، وجدت أنها كانت تنتعل حـــذاء نايـــك "ايـــر واكس"... تحت ثياب الراهب الطويلة.

هذه الخفة التي لا تحتمل. حياة واحدة، لا حياتين، أو ست وثلاثين.

إلا أنني أصر: كل سنوات رحيلي عن ألبرتا هناك "أنا" ما زالت تعيش هناك. إنها شخص مذهل — أعني أنني أحبها كثيرا- فتاة من كالجاري من أصل أيرلندي وفخورة بذلك، فتاة حقيقية من الغرب لها ضحكة قوية وصـــادقة، شبه رجولية، امرأة طويلة مُلوّحة الجلد، أقوي مني، أكثر مني مرحا، تزن ولنقل ثلاثة وستين كيلو، لـــديها هيئـــة كريمة، حركات سخية وأوراك عريضة، ولهذا فان المرات الأربع أو الخمس التي وضعت فيها كانت يسيرة. يـــأتي الرجال ويذهبون من حياتها، أزواجا أو غير ذلـــك، أمـــا الأولاد فيبقون ويكبرون ويحبونها كثيرا، يأتون بأصدقائهم في منزلها، ثم بعد ذلك بعشاقهم ثم رفاقهم وأولادهم. من الممكن أن تكون هذه المرأة قد صارت جدة وذلك لأنهـــا

بدأت باكرا . جاءها أول طفل وهي في الثامنة عشرة من عمرها ثم تبعه الآخرون في الطابور، تترك شعرها يـــشيب وهذا لا يهمها. تضع مساحيق قليلة، إلا أنها تحب أن تضع أحمر شفاه قرمزياً وأقراط ثقيلة مكسيكية مـــن الفـــضة والفيروز. إنها ليست مثقفة، فقد دخلت عالم العمل بمجرد أن أنهت دراساتها الثانوية، وخلال وقت قصير كانت تدير مكتبها الخاص للعقارات. كان ذلـــك في الـــسبعينيات، سنوات الازدهار البترولي، وقد ربحت مالا وفيرا أخـــذت تنفقه وتمنحه –بل تبدده كما يقول البعض– ولكن بفرح، كل ما تقوم به تفعله بسعادة، سواء كانت تقتلع الأعشاب الميتة من حديقتها أو تعد القهوة على نار الحطب عندما يذهبون للتترة في جبال روكي، أو عندما تعشق جـــسدا وروحا جسد وروح رجل اللحظة أو وهي تشوي لحمـــا على الفحم أو وهي تصنع الكعك في الـــصباح لأطفالهـــا العديدين، ينتهي الكعك سريعا، رائحته زكية، تنشر الحياة من حولها، تدهش الجميع وتضرب على الأرداف وفقـــا للموقف. هي ليست ضد بعض العنف أو بعض الرذيلة من حين إلى آخر، فهذا مفيد. تصيح عندما يحلو لها، تقـــذف بشتائم ضخمة كالبيوت، تهوى لعب البوكر وتناول الجعة

من الزجاجة مباشرة، حتى أنها فقدت أحد أسنانها وهـــي تحاول فتح الزجاجة بفمها بينما كانت ترقص. تعـــشق الرقص، فعندما تذهب لمرقص يوم السبت مساء ، تتظاهر بأنها عاهرة، لا تبالي بما قد يقال عنـــها، تقتـــرح علـــى أصدقائها دورات، تفضل صحبة الرجال علـــى النـــساء وذلك لأن الرجال يضحكون أفضل من النساء، يشربون أفضل، لا يشكون أو يدندنون دائمـــا بالحـــديث عـــن مشاكلهم الصغيرة. فهي تمقت الجبن، والدلال، والترهات. تحرص على أن تتعرف على الأشياء في جوهرها والنظـــر إليها مباشرة وعلى إصلاحها بنفسها، سواء كان تسرب ماء من السقف أو حزن طفل. فهي تسبح في الوجـــود مـــستحوذة علـــى الآلام والأفـــراح، تحـــب الـــسيطرة والعضلات، تعرف التزحلق على الجليد وركوب الخيـــل، تقود سيارة بيك أب قديمة، بشكل مسرع وخطر بعـــض الشيء، وهي تدير الراديو بصوت عال جدا وتغني بـــأعلى صوتها معه ....

هذا بالذات، فهذه المرأة تغني أغاني ضاعت مـــني، نسيتها، ذبلت وانسلت من ذاكرتي، أو لم أحفظها وكان عليّ أن أتعلمها أو كنت أرغب في ذلك كثيرا، الـــصوت

يغلي في أحشائها ثم يتذبذب في صدرها ثم ينبثق من زورها. تكون الكلمات مضحكة ، بلهاء، بائسة....
بينما أنا في بلاد الكلاقسان والقلاع، محبوسة من الصباح الى المساء في الصمت، أضرب بلا كلل الكلمات على شاشة رمادية...

البوذيون على حق وكذلك كونديرا: بالفعل، هي غير محتملة خفة الكائن! وألاّ يكون لدينا غير حياة واحدة، فهذا أمر غير مقبول، ببساطة شديدة!

(خريف ١٩٩٨)

وجوه فرنسا الاثنا عشر

١ – الخيالية

"تؤلمني رأسي"، أقولها وأنا أترنح على المنصة، يدي مستندة على رسغي بشكل مسرحي والكـــل ينفجـــر في الضحك. يحدث ذلك في مدرسة حكوميـــة في مدينـــة إدمونتون، في غربي كندا، في ســـنة ١٩٦٠، في "عيـــد الآباء"، لديَّ ست سنوات ونصف و قمت بـــتلاوة أول جملة كاملة تعلمتها باللغة الفرنـــسية. ثم بعـــد ذلـــك في مدرسة بنيوهامبشاير، في نهاية الـــستينيات، في ســـنوات الحرب والمخدرات والروك، سأغني مع فصل من المراهقين طويلي الشعر، مع تطويل حروف العلة بشهوانية أطول من أيديث بياف بعشرات المـــرات: "قلبببببـــيي الـــذيييي يااااااادق!"، أو مع بوريس ڤيان:"نبهوا عساكركم، فلـــن تكون لدىَّ أسلحة، وسيتمكنون من التصويب"، مـــاذا يعني التصويب؟" فرنسا الخيالية، فرنسا اللغة الفرنـــسية، الأغنية والشعر الفرنسيان، والتي تتمتع بهيبـــة ملغِـــزَة في أمريكا الشمالية.

٢ – المبهمة

"من المتحدث؟"، يسأل الصوت في الهاتف فينتابني الفزع. إنه الثالث من سبتمبر عام ١٩٧٣، وضعت قدمي ولأول مرة على الأراضي الفرنسية، ونجحت في وضع العملات المناسبة في الفتحات المناسبة في الهاتف وأن أطلب التحدث مع الشخص الوحيد الذي أعرفه والصلة الوحيدة في هذه القارة، السيدة باراتان، أنا لا أصطنع الحكاية، فهي تدير الفرع الباريسي لجامعتي في نيويورك. وبدلا من أن يوصلوني بها يردون بهذه العبارة الغامضة بشكل فائق" من المتحدث؟" ماذا يمكن أن يعني ذلك؟ خلال هذه السنة الأولى سأواجه مرارا الهوة التي تفصل اللغة الفرنسية التي نتعلمها في المدرسة، تلك المكتوبة، الفنتازية التي هي لغتي، عن اللغة الفرنسية الحية كما يتحدث بها الفرنسيون. يفزعني الأطفال خاصة: عناقيد من الأطفال يثرثرون بشكل غير مفهوم في المترو، في أحواش المدارس. كيف يستطيع هؤلاء الصغار البلداء أن يتكلموا بهذه الجودة بينما أنا وعلى الرغم من شهاداتي، لا أستطيع أن أصل ثلاث كلمات ببعض؟ المجهود المتواصل للفهم يرهقني ويثيرني. أحيانا في نهاية سهرة ما أتنازل عن

مواصلة الحديث وأقوم بالاستماع إلى الأصوات الفرنسية كموسيقي فوضوية تخلو من المعنى الدقيق.

٣ – الأثرية

" وهنا على يمينكم..." أتنزه في هذه البلدة مفتوحة الفم، جاحظة العينين، وقلبي يدق. كل شيء يبهرني: قصر التروكاديرو يبدو لي في عظمة الكونسيرجيري[٢٧]، جبل سان ميشيل[٢٨] لا يبهرني أكثر أو أقل من حي الهوشيت. وحتى اليوم، أتأثر في كل مرة يجعلني فرنسي أكتشف بفخر أثرا ما، أو كنيسة، أو نبيذا محليا. لا أرى أي تطابق محتمل لهذا الفخر عند مواطني غربي كندا، وأنا أهز رأسي أمام مكتبة للعلوم الإنسانية في سيلستات، لا أستطيع منع نفسي من همس: "لم يكن لدينا ذلك في كالجاري!"... إلا أنني أظن أيضا أن هذا الفخر يجعل الفرنسيين غائبين عن أنفسهم. وأنه يحل محلهم، كما لو أن العظمة السابقة لبلادهم تعفيهم من أخذ مسئوليتهم على عاتقهم كأشخاص يحيون في الحاضر.

---

[٢٧]- سجن ملحق بقصر العدل بباريس. احتجزت فيه ماري أنطوانيت قبل إعدامها. — مر.

[٢٨]- تعلوه آثار كنيسة قوطية الأسلوب ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. — مر.

٤ – اليسارية

"هيا، فجروا فرانكو لتتطاير أشلاؤه أعلى من أشلاء كاريرو[٢٩]!" فرنسا الخاصة بي في السنوات الأولى مازالت فرنسا مايو ٦٨. أنا التي أتيت من عالم حيث يكفي أن نكون مع أو ضد الحرب في فيتنام، مع أو ضد استقلال كيبيك، لكي نكون مسيسين. فأذهل من مقابلة شباب في سني في بداية العشرينيات لديهم خطاب سياسي متنوع وحاسم: "أقدم لك بدرو، هو ماوي، هيلين تروتسكية، فيليب ماركسي لينيني وبيير coco[٣٠]، نسير في الشوارع رافعين قبضاتنا، نتنفس الغازات المسيلة للدموع بكميات كبيرة، سعداء للتألم من أجل القضية، ارتكاب الحماقات من نصيب الأفضل وأنا أبذل ما في وسعي للتحدث بهذه الفرنسية أيضاً، لإنشاد *النشيد الأممي*، لهتاف: *الأمن المركزي بوليس نازي*، للمناداة وأنا المسيحية الصغيرة التي حصلت على حريتها، بالقضاء على أشخاص، نعم – ليس فقط فرانكو وبينوشيه، ولكن الكثير من الناس ، كل البرجوازية ، من أجل الثورة. نعم

---

[٢٩]– في عام ١٩٧٣، اغتال معارضو الدكتاتور الإسباني فرانكو (١٨٩٢-١٩٧٥) الأميرال لويس كاريرو بلانكو، مساعد الدكتاتور الأول. – مر.

[٣٠]– شيوعي، بتعبير الستينيات. – مر.

هذا يكفي، لماذا لا نذهب لتناول وجبة خفيفة في مطعم شي فلو؟

٥- الغاوية

"هل أنت بمفردكِ؟"، وإلى أن أخرج في النهاية في السنوات الأخيرةَ من نوعَية ا.ش.ج. (امرأة شابة جميلة)، كانت الجمل التافهة للمغازلين الفرنسيين أحد الأوجه التي لا يمكن الإفلات منها والأكثر إزعاجا لحياتي اليومية. غير أني أحب الإغراء! إلا أنني لم أتعود على هذا الخرق المتكرر لعالمي الخاص، وعلى غفلية المتسكعين الحريصة. امرأة شابة تمشي في الشارع وهي تقرأ رسالة -"هل الأخبار طيبة؟"- أو وهي تأكل سندوتشا -"هل تعطيني قضمة؟" - فهي تخضع مرارا لهذه المقابلات الزائفة. . "هل أنت بمفردكِ؟ - لا، ولكن كم كنت أود ذلك..." أو -دون كلماتَ- تخترقها بنظرة للاستمتاع برؤيتها وهي تخجل وتشيح بوجهها، وترتبك. كان عليَّ أن أنتظر أربعين عاما حتى أحصل، في شوارع باريس، على تلك الحرية التي يمتلكها أي غلام في الخامسة عشرة من عمره كحق أصيل.

٦- المنظِّرة

"يتشكل اللاوعي كلغة". والمنظّرون الفرنسيون كالآثار نوعا ما: في البداية يبهرونني ويجعلونني أخاف بشكل عام. وكمئات الطلاب، أحضر بشكل دائم المحاضرات التي يلقيها چاك لاكان، والذي يسبح في القاعة المكتظة بجمله العصية على الفهم. وإذا لم أضع مسجلا بين العشرات التي انتشرت على المنصة، أدون ملاحظات متناهية الدقة، أجاهد لكي أكتب بأمانة التراكيب اللغوية العبقرية للأستاذ، وأنقل الرسم الهندسي حتى أقوم بتلوينه في المترل بعد ذلك. "هنا نرى رغبة الأم الممزقة على شكل قالب اسطواني" اسطواني؟ أحتفظ إلى الآن بالملاحظات المدونة لهذه المحاضرات لكي أتذكر إلى أي مدى يمكن أن نصل في الانقياد. إلا أن هناك أيضا فئة أخرى: رولان بارت. هذا الشخص الرقيق والتنويري في الوقت نفسه علمني قراءة النصوص، وأيضا قراءة العالم كنص، والاهتمام الهوسي بالكلمات وبمعانيها الكامنة. وسواء كان بارت يتكلم عن الحب أو اليابان أو الأوبرا أو الشطب أو الجنس المحايد أو التصوير، كان يتميز بلطف وسخاءٍ في التفكير كان خاصا به وحده. وإذا كان لي من

معلم حقيقي فسيكون هو معلمي الذي تنازل عن كل شكل من أشكال السيطرة.

٧- النسوية

"ها هي واحدة لن يحصل عليها الرجال"، تقول مارتين وهي تهجم على ضلع الخروف في طبقها، مثيرة صيحة ضاحكة حول المائدة. كنا عشرين سيدة نقضي عطلة نهاية الأسبوع في مترل ريفي لتحضير العدد الأول من مجلة نسائية، "حكاياهن". مجلة كانت تريد التحدي فتتطرق إلى كل الموضوعات : من حرب العراق مع إيران إلى صالون تصفيف الشعر الكائن على الناصية، وستبقى أربعة أعوام. أربعة أعوام من الاجتماعات المكثفة والودودة التي كانت مليئة بالدخان، بالصخب، بالمنازعات.. واليوم، أظل حالمة أمام الصور الساحرة التي صنعناها بعد فوات الأوان "مناضلات حركة تحرير المرأة"، سيدات مسترجلات ممتلئات بالغيظ وروح الانتقام. فكما فعل الرجال خلال عصور طويلة، انتابنا فرح جنوني للعمل معا، محاولين تقليل حجم العنف والقهر والبذاءات في العالم: هل هذا مزعج إلى هذا الحد بحق؟

٨- التافهة

"هل ستتناول هذا النوع من النبيذ أو ذاك؟".
الجِدَّةُ تعطي لأي بلد أجنبي سحرا تلقائيا: التفاصيل الصَغيرة للحياة اليومية تصير مثيرة، وذلك لمجرد أنها غير مألوفة. كل الأشخاص يبدون لنا كما لو كانوا مثقفين ومهذبين، لمجرد تمكنهم من لهجة أجنبية... ولا نندمج حتماً في بلد ما إلا عندما نستطيع الشعور بالملل، ونعترف بأن بعض السكان هم دون المتوسط كما في بلدنا الأصلي. ما هو جوهر الملل على الطريقة الفرنسية بالنسبة لي؟ إنه فاتح الشهية. فاتح شهية مقدم بشكل بطيء وتفاخري من قبل مستقبليك ذوي الأسلوب المتكلف:"بعض قطرات أخرى من "السوز"، هل تأخذ آپيركيب مع... ؟ أم مقرمشات البرتزل؟ لا؟ يجب أن تأكل، وذلك لأن الكحول، دون طعام، سيجعلك تشعر بالدوار. " ياه! هذا يجعلني أريد أن أُخرج صرختي القديمة التي يطلقها رعاة البقر -"يب-يب-يي!"- وأن أقفز على حصاني الذي ينتظرني بصبر منذ عشرات السنين تحت النافذة.

٩- الكوزموبوليتية

"لحسن الحظ أنني هنا لكي أمثل فرنسا!"، تقول كاترين. وكما يحدث ذلك لنا أحيانا، ننظر حول المنضدة ونلاحظ مندهشين أن من بين المدعوين الستة أو الثمانية أو العشرة ـــ الذين ومنذ ثلاث ساعات يتذوقون الأطباق الفرنسية، ويشربون النبيذ الفرنسي ويتشاركون بالفرنسية في طرح مشاكلهم وآرائهم والتعبير عن آمالهم، نجد أن الوحيدة التي ولدت في هذا البلد ـــ هي كاترين (أو فرانسوا أو سيفرين، حسب الحال). أما الباقون فهم من أوروبا الشرقية، أو من الشرق الأوسط، أو أمريكا الشمالية. يعيشون هنا منذ عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين عاما ولا يريدون البتة أن يعيشوا في مكان آخر. فغربتهم لها أسباب عديدة ومتنوعة إلا أنهم يقدرون جميعا في بلد التبني المكانة التي يهيئها هذا البلد للجمال وللأشكال، أكان في الأدب أو المطبخ أو الحديث.. الفرنسيون يعرفون كيف يعيشون وأحيانا كيف يدعون الآخرين يعيشون.

١٠- الإتباعية

"خيال زائد!"، تخربش المدرسة في نهاية موضوع تعبير لابني. فاحترام الأشكال يتجمد أحيانا (وهذا بشكل مؤسف للغاية في المدارس) بسبب التمجيد المتصلب للقواعد الموضوعة. اللباقة تصير ادعاء، يتوقف التعبير عن أن يكون ُمتقَناً لكي يصير تصنعا، الخيال معرض للسخرية، والتافه ليس بالبعيد:"الذين يستخدمون الجراج مطالبون باستمرار، ولأسباب أمنية وصحية، بالحرص على إغلاق هذا الباب خلفهم عند مغادرتهم للمبنى"، توصي لافته معلقة في مخرج الجراج – بينما في بلدي كنا سنكتفي بعبارة:"أغلق الباب".

١١- الساخرة

"ماذا! كان لديه أربعة أطفال، بالإضافة إلى رضيع؟ ياه، البيبرونات، الحفاضات، البراز، ليس عجيبا أنه أنتحر!" ومن بين التقاليد الفرنسية، فإن السخرية هي التي أمقتها أكثر، التي أرفض أن أجعلها لي. التي وبعد ربع قرن من إقامتي في فرنسا تصدمني كما في اليوم الأول. هي تقليد باريسي أكثر من كونه فرنسياً، إلا أن الفلاسفة

والسياسيين ذوي المكانة العالية يدمنونها بمرح: تعـبيرات مثل "وجه شخص لاتيني حقير"، تدوي إلى مالا نهايـة في إذني. نغمة تعال سهلة، رغبة في الكلمة الصحيحة بـأي شكل، حاجة إلى السخرية من الضعف، من الصدق، من المستوى الأول ... وبما أنني لا أحب أن أغضب، أتفـادى أماكن السخرية الخاصة تفادي للطـاعون: الـسهرات، الجرائد، المناقشات المتلفزة.

١٢- الجوانية

"مارسيل أخذ ذاكرتي معه"، تقـول لي مـادلين العجوز وهي تضحك، جارتي في البيري، والتي فقـدت زوجها منذ ثلاث سنوات والتي، منذ ذلك الوقت، تفقد ذكرياتها تدريجيا. ففي هذه المنطقة المعروف أهلها بـأنهم يعتقدون في الخرافات، ومنغلقون، اخترنـا أن نمـد لنـا جذوراً. من المؤكد أنـه بالنـسبة لفلاحـي منطقتنـا "بواشوت-سود"، فإن سكان بورج هم غرباء أيضا. إلا أنهم وبمواجهتهم لعائلة ولـد أفرادهـا في صـوفيا، وفي كالجاري وفي تونس العاصمة، فإنهم تنازلوا عن الحـذر: أمام كائنات من الفضاء نكون فضوليين بلا شك! ثم ما

لبثوا أن تبنونا تدريجيا، ولد ابننا على يدي ولادة ماهرة من البيري تدعى پروست، ومن الممكن أن تكون علاقاتنا في البيري هي الأكثر هدوءا والأكثر صدقا الآن. فهنا، في عيد القديسين، نذهب إلى المدافن لكي نتذكر مارسيل، وريموند، وبيير وسابين... هنا في النهاية وعلى هذه الأرض الفرنسية التي تكتنفها الغابات الصغيرة والمستنقعات، والسياجات من الأشجار والغابات، والكنائس الصغيرة الرومانية والبقر المميز للمنطقة، سنرغب في أن نجد الراحة الأبدية في نهاية الحكاية.

(صيف ١٩٩٨)

الفهرست

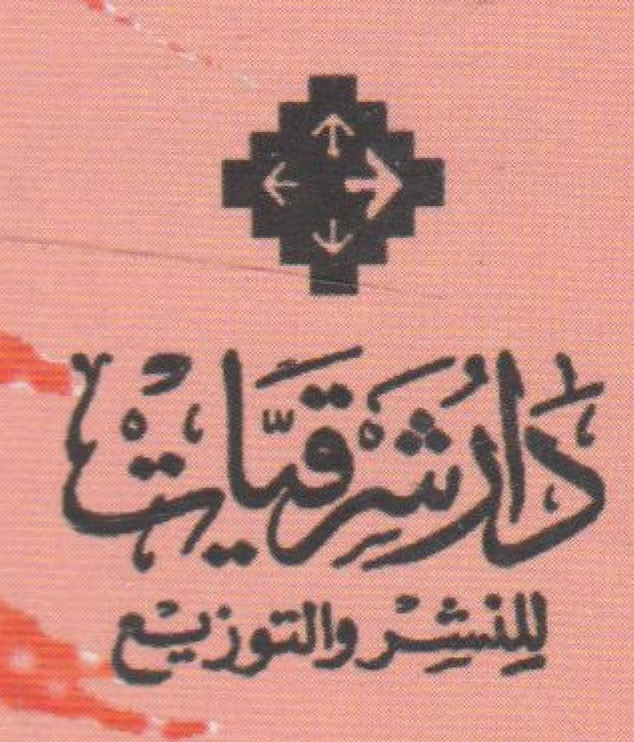
نانسي هيوستون، الكندية الأنجلوفونية، تقيم في باريس منذ سنوات عديدة، وهي تكتب بالفرنسية والإنجليزية وتترجم أعمالها بنفسها من إحدى اللغتين إلى الأخرى، وهو ما يعني أنها تعرف جيداً، ومن الداخل، ذلك الشعور العميق بالقلق والذي ينشأ من كونها منفية، بلدا ولغةً. ويقدم "الشمال المفقود" تأملات، تضيئها الكاتبة بخبراتها وقراءاتها، حول رؤية الذات على نحو ما يواجهها كل مغترب، وهي رؤية ليست سهلة وأحيانا ما تكون أليمة: فهو بلا جذور ثابتة في مكان ما، وهو ليس عديم الجذور، وهو في جميع الأحوال أكثر من واحد، وإن كان لا يكف البتة عن البحث عن هوية، عن علامة مرجعية يهتدي بها، عن "شماله" "المفقود"، أي عن بوصلته الضائعة.

أما "وجوه فرنسا الاثنا عشر" فهو بورتريه لعبي وعاشق، في اثني عشرة لوحة تتراوح بين الأكثر تعاطفا والأكثر إثارة للانزعاج، ترسمها الروائية للبلد الذي اختارت الإقامة فيه والانتساب إليه.

فوتوغرافيا وتصميم الغلاف هبة حلمي






دار شرقيات
للنشر والتوزيع